

المحور الأول

(دوائر) التأسيس المعرفي للمفهوم البلاغي

العناصر الوراثية للمعرفة

- 1 -

يقول الجاحظ في «البيان والتبيين»: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم»⁽¹⁾. وبهذا القول المنقول يربط الجاحظ ربطاً وثيقاً بين الزمن وطبيعته وبين أحوال الناس ونشاطهم، وكذلك شمائلهم وأخلاقهم - ولهذا يقول في موضع آخر: «ونسيت - أبقاك الله - عمل البلدان، وتصرف الأزمان، وأثارهما في الصور والأخلاق، وفي الشمائل والآداب، وفي اللغات والشهوات، وفي الهمم والهيئات، وفي المكاسب والصناعات على ما دبّر الله تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة والتدابير العجيبة»⁽²⁾.

إنَّ إيمان الجاحظ العميق بأثر التأصيل الزمني والمكاني في تكوين الأخلاق وتشكيل طبائع الناس، كما يوضح ذلك الإشارتان السابقتان؛ حيث تكونان رؤية معرفية مهمة تجعل للمنازل والديار بأزمانهم نشاطاً لا يمكن تجاهله، هذا النشاط هو المشكّل لطبيعة كل رؤية إبداعية أو معرفية. ولما كانت البلاغة تدخل في خير هذا السياق المعبر عن التعدد النشاطي؛ فإنه لزامٌ علينا أن نوصل الدائرة المعرفية التي أفرزت المفاهيم البلاغية بكل مساحاتها في عصر الجاحظ.. لأنَّ المفهوم البلاغي في هذا الحيز المعرفي أشبه بـ«دينامية المفهوم الأيديولوجي»؛ والذي أشار إليه (عبد الله العروى) بأنه: «ليس مفهوماً عادياً يعبر عن واقع ملموس فيوصف وصفاً شافياً، وليس مفهوماً متولّداً عن بديهيات فيحدّ حدّاً مجرداً، وإنما هو مفهوم اجتماعي تاريخي، وبالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية، وسياسية

(1) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط 1، ص 196.

(2) أبو عثمان الجاحظ؛ رسالة الأوطان والديار - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

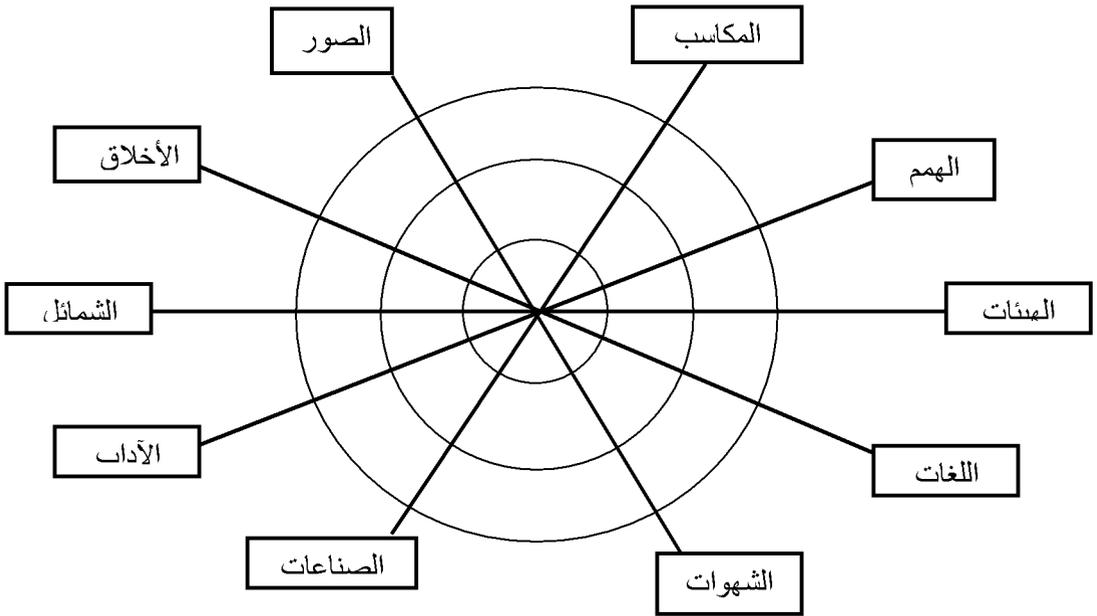
عديدة... إنه يمثل تراكم معان؛ مثله في هذا مثل مفاهيم محورية أخرى، كالدولة أو الحرية أو المادة أو الإنسان»⁽¹⁾.

إنَّ مفهوم البلاغة في عصرٍ له (ديناميته) المتشابكة؛ وهو عصر الجاحظ، أشبه بما قاله العروى، فهو نتاج مناظرات ومحاورات، بل وثقافات متعددة، لأنه يمثِّل اتجاهات وأعراق، كما يمثِّل أمورًا محورية تعبر عن وجود خاص لكل طائفة من الطوائف المشكلة للمجتمع العباسي آنذاك.

كل ذلك يوجِّه دراستنا هذه إلى اصطناع محاور معينة ترتبط بحيالها الوثيقة مع طبائع وأصول تُفرز مفاهيم البلاغة. وارتباط الإنسان بزمنه يدخل - كما أشار الجاحظ - في حيزٍ شبَّه الابن بأبيه «فمن شابه أباه فما ظلم». فالزمان والمكان يكوِّنان الشكل (الصور)، وكذلك الطبائع والأخلاق؛ أي يصنعان ملامح الشخصية بجوانبها الحية (الصور)، وكذلك بجوانبها المعنوية (الطبائع).

وليس هذا وحده هو أثر ثنائية الزمان والمكان، وإنما لتلك الثنائية (ديناميتها) المتعددة، والتي يجب معرفتها جيدًا، ولذا فقد نبَّه الجاحظ بطريقته الإشارية إلى ضرورة دراسة علاقات الزمان والمكان بالظواهر المتعددة، والتي لا تقف عند الصور والطبائع، وإنما تتسع دائرتها وتنداح أوسع من ذلك لتشمل في مساحتها شمائل الناس وآدابهم، حيث يؤصِّل للظاهرة الاجتماعية الصانعة لآداب الشعوب ولشمائلها أيضًا، فربطه واضح بين كل تلك العناصر والعناصر الأخرى؛ حيث تتمثل في اللغات - ولهجات التعبير والنطق -، بجانب نسبية الهمم ودوافعها؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الشهوات والهيات تتشكل من خلال التشكيل الزمني والمكاني، فالمناشط الحיוية الإنسانية كلها تتحرك بدينامية الثنائية هذه (الزمان + المكان).

(1) عبد الله العروى، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي، الدار البيضاء - المغرب، 1980م، ص 5.



[دينامية الزمان والمكان]

فكل مساحة هذه الدائرة بطاقة مزدوجة من الزمان والمكان لا بد من فحصها ودراستها، والوقوف عندها قبل دخولنا في الحديث عن دينامية مفهوم البلاغة؛ والذي يُعدُّ إفرآزاً صادقاً لهذه الدينامية المزدوجة.

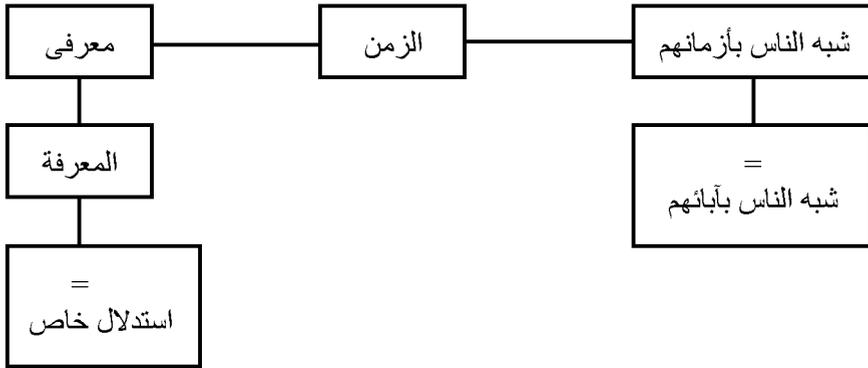
- 2 -

والدخول في التحديد البلاغي بمفهومه يجب أن يقف أمام ملامح العصر الذي أفرزه - لأنَّ الجاحظ أشار مؤكِّداً على فاعلية هذه الملامح، وإن لم يحدث ذلك فإن البدء بالدرس البلاغي ومفهومه عند أبي عثمان سيُعد - حينئذٍ - درساً مبتوراً يؤدي إلى خلل كبير في الفهم والتناول، فالمفهوم - بذلك - سيكون غير واضح، وليس له جذوره المحددة وأشكاله المعرفية... فمقولات الجاحظ هذه توجب، بل تفرض وترسم بداية تحديد هذا العمل النقدي

لرؤية الجاحظ للمفهوم البلاغة، ولذلك فقد ألحَّ مرة أخرى على ضرورة استعمال المعرفة قائلًا: «لولا استعمال المعرفة ما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى، ولولا تمييز الضار من النافع والردى من الجيد بالعيون المجعولة؛ لذلك جعل الله عَزَّ وَجَلَّ العيون المدركة»⁽¹⁾.

فمعنى ذلك أننا نعود إلى تحديد ملامح المعرفة من خلال مقولته الأولى؛ وذلك بربط المعرفة بصلاتها الوشائية المهمة من خلال زمنها ومكانها، ثم الاستدلال بما حققته المعرفة من نتائج ونظريات تقودنا إلى الدراسة السليمة، وبالتالي إلى القراءة النقدية الحقَّة.

إنَّ الملمح الزمني المكوّن لأشكال وصور الناس وهيئاتهم، وربط هذا الملمح بالتكوين المعرفي، ثم الوصول بعد ذلك إلى قوانين واستدلالات خاصة تعمل على إظهار ملامح منهجية معينة أمر من الأمور المحققة لنظرية القراءة؛ وبخاصة نظرية القراءة المتصلة بالمفهوم البلاغي وأبعاده عند الجاحظ.



[الزمن الذي يؤدي إلى تحديد ملامح المعرفة]

(1) أبو عثمان الجاحظ؛ كتاب «الحيوان»، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثاني، مكتبة الحلبي، القاهرة، ص 115.

ولأنَّ القراءة النقدية الجديدة للتراث تنادى بتواصل الدائرة الأبيستمولوجية (المعرفية) لدى القارئ للشئء المقروء بعصره، فإن هذه الدائرة تتماس مع دائرة العصر (عصر القارئ)، فيأتي التفاعل الذي يؤدي - بدوره - إلى تأصيل القراءة نفسها.

ولمَّا كان الهدف - لدينا - هو قراءة في المفهوم البلاغي عند الجاحظ بين التأثير والتأثر؛ فقد رأينا أنه من المحتم رسم الدائرة المعرفية لعصر الجاحظ، ثم ربطها بعد ذلك بالمفهوم البلاغي عنده، وهو مفهوم ينبع من تلك الدائرة، ويُعدُّ جزءاً تأسيسياً منها.

إذن فهذا المحور سيدرس الجذور التي أسست المعارف لعصر المفاهيم المدروسة، ثم كيف نمت الجذور وأنتجت سوقها؛ حيث ازدهرت وآنت قطافها دانية في مصطلحاتها ومفاهيمها، وستقف هذه الدراسة على أبعاد؛ هي:

البعد الأول - عبقرية الزمان :

- 1 -

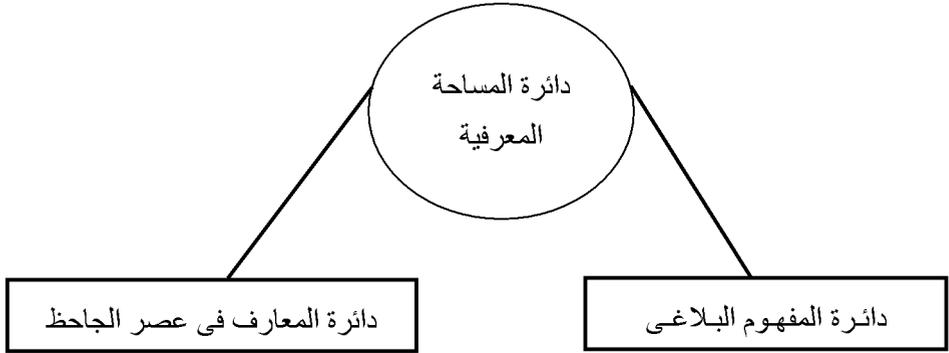
إنَّ قراءة المفهوم البلاغي عند الجاحظ هو - بالضبط - قراءة لتناج ثقافي لعصرٍ من العصور تصارعت فيه عناصر المعرفة، كما هو - أيضاً - نتاج اجتماعي لفئات من الناس، حيث تتفاعل تلك الفئات مع تراثها وثقافتها، كما يُعدُّ - أيضاً - قراءة لعنصر امتدادى ارتبط بموروث سابق لا يمكن إهماله. فنحن - إذاً - أمام دائرة كبيرة المساحة لا يمكن الولوج بدونها إلى دائرة المفهوم البلاغي «وهو بالطبع أقل حجماً منها». فالوقوف على هذه الدائرة (الأوسع) - ونعني دائرة عصر الجاحظ المعرفية - هو وقوف من يمسك بأطراف خيوط متشابكة ومعقدة في آنٍ واحد، ولكن هذه الخيوط مرتبطة بروابط هندسية وكونت بمهارة ودقة بالغة.

ومساحة دائرة عصر الجاحظ المعرفية خليط من الثقافات الصاخبة المتعددة الأصوات، والمتنوعة الألسن؛ فقد عاش الجاحظ في عصرٍ كان يزخر بالعلوم والآداب، هو العصر الذهبي للأمة العربية، عصر (هارون والمأمون والمتوكل)، حين كانت معاهد البصرة وبغداد والكوفة

وقرطبة وسائر عواصم الإسلام تفيض بالآداب والعلوم والفنون، وكان المعين فيأصًا مترعًا، والتأليف والترجمة لهما دوىٌّ شديد في كل صقع، والعلماء والأدباء في نشاط عجيب، يصل الليل بالنهار والغدوّ بالأصال⁽¹⁾.

- 2 -

فالمساحة المعرفية كانت تموج بحركاتها غير المتوقفة، الأمر الذى صنع (دينامية) استمرارية تفرز مفاهيمنا المتعددة في توال غير متوقف، وعصر هذا شأنه المائج الزاخر بشتى المعارف والعلوم لا يجعل تناول مفهوم من مفاهيم التعبير الفنى وحدةً منفصلة، بل هى مساحة متواراة من مساحات أخرى.



ولا تقف الدائرة الكبرى بمعارفها المائجة وحدة منفصلة، بل تتصل بدوائر أخرى. فالقرن الثالث الهجرى لا يمكن فصله بحالٍ من الأحوال عن القرن الثانى الهجرى - «فعلماء القرن الثالث الهجرى كانوا مخلصين للموروث الذى نقلوه عن أساتذتهم، وكانوا يرون أن الحل للمشكلات الأدبية هو تطوير النظريات التى أخذوها عن أساتذتهم»⁽²⁾.

(1) عبد السلام هارون؛ قطوف أدبية ودراسات نقدية فى التراث العربى، مكتبة السنّة، القاهرة، ص 170.

(2) إحسان عباس؛ تاريخ النقد الأدبى، دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة، 1986م، ص 77.

فالجاحظ عاش في عصر امتداد فكري واتصال معرفي، لقوى من بين الامتداد والاتصال تلميذًا وأستاذًا، وقد كان بنفسه صورة صادقة لانعكاس التلون المعرفي في عصره، وهذا ما يبدو في اختياراته للمفاهيم البلاغية، والتي تعكس التداخلات الدقيقة المعبرة عن تداخلات المعرفة.

البُعد الثاني - عبقرية المكان :

- 1 -

وبجانب هذا الامتداد الزمني ومساحته؛ فإن الجاحظ عاش في عصر ارتبط بحيّزه المكاني، والناس أيضاً أشبه بأماكنهم منهم بأبائهم، فكان للتأثير المكاني دوره الكبير في صنْع المكونات الثقافية. وبخاصة بلاد (البصرة والكوفة وبغداد). ودارس البلاغة بمفاهيمها وأبعادها لا يمكن له الابتعاد عن هذه المدن، وما كان يموج فيها من حركة أجناس متعاقبة متفاعلة⁽¹⁾. ولأن للمكان أثره العميق في الفن القولي، فقد أشار الجاحظ إلى نظرية العرق المؤثرة في قول الشعر؛ فيقول في كتابه «الحيوان» عن الشعراء وأقوالهم وتنوعها: «وإنما ذلك في قدر ما قسم الله لهم في الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق»⁽²⁾.

- 2 -

وعندما يبدأ الجاحظ حديثه عن البلاغة ومفهومها فإنه يلجأ إلى نظرية تداخل الأجناس؛ فيختار - أولاً - التعريف البلاغي المتعدد بفعل تعدد الأجناس البشرية ذاتها. لقد جمع بين الفارسي والرومي والهندي واليوناني؛ وكلهم في خيط واحد مما يدل على أن هذه الأجناس كانت متواجدة بحياتها الطبيعية في مكان واحد.

ولأن دراستنا تنبع - أساساً - من تكامل الدوائر ونظرية التواصل بينها، فإننا - إذن - سننظر في أثر عبقرية المكان⁽³⁾، ودور هذه العبقرية في تأصيل المفاهيم في كافة المجالات؛ هذا

(1) يُنظر: الفصل الخاص «الجاحظ في البصرة»، تكوينه الفكري - ضمن كتاب شارل بلات «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء»، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1961م، ص 90 وما بعدها [حيث يتناول موضوع تداخل الأجناس المتعددة من الفرس والهنود والروم وغيرهم، وسيطرة هذه الأجناس على طبيعة الحياة الثقافية والاجتماعية].

(2) الحيوان؛ الجزء الرابع، ص 387.

(3) هذا مصطلح كان السبق فيه للعلامة جمال حمدان في كتابه «شخصية مصر»... دراسة في عبقرية المكان.

من جهة.. ومن جهة أخرى فإن رؤية الجاحظ الثقافية والفكرية، هي رؤية حركية (دينامية) نبعت من الرغبة في بث روح الحياة فيها من خلال أعلامها وثقافتها، ولهذا فقد لجأ إلى التصوير القائم على الرؤية التشخيصية للمكان، مما يُعطي أهمية وجود وتأثير فعال في الحركة المعرفية - يقول في موازناته البلدانية: «وقال زياد: الله للكوفة أشبه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم»⁽¹⁾.

فهذا الاختبار وجد هوّى كبيراً في نفس الجاحظ في عمل نظرية «الإناسة المكانية»؛ حيث يجهّز لها كل أبعادها لتكون نظرية ذات عمق غير مسبوق في هذا الميدان - فيقول: «وقد رأينا اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن»⁽²⁾. ولا تتعجب عندما ترى أن هذه الإشارة قد جاءت في موسوعته البلاغية الشهيرة «البيان والتبيين»؛ فوجودها في حيز الحديث عن البلاغة بكل عناصرها وأبعادها يلمّح إلى دلالات مقصودة عنده، فأبو عثمان لا يضع قولاً في موضعه الأول إلاّ وله هدف سياقي مقصود، فموضوعاته المتعددة في كتاب واحد ينظمها خيط قوى مفتول الفكر والمعرفة والتأصيل، ويشد هذا الخيط بذكاء بارع من صاحبه، ولهذا ينبه في ذات الموسوعة قائلاً: «وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات»⁽³⁾. فعلى قدر التأثير المكاني والتأثير الخاص به يلاحظ تنوع اللغات والأخلاق، وكذلك الشهوات؛ بل إن الإنسان يُلحق ببلده فينسب إليها مدحاً وذمّاً في خصاله المختلفة، ولذلك قالوا: «فلان ابن نجدته، وفلان بيضه البلد يقع مدحاً وذمّاً»⁽⁴⁾.

شخصية البصرة والبناء المعرفي :

لقد جاء هذا التعليق - الجاحظي - بعد ممارسات طويلة وخبرات متواصلة غير متوقعة في جميع موادّه العلمية من أماكنها في رحلات شاسعة، عاش خلالها طبقات عديدة متنوعة.

(1) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الثالث، ص 294.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.

(4) المرجع السابق.

ولقد اهتم الجاحظ اهتمامًا كبيرًا برسم ملامح البصرة بصفة واضحة، وذلك من خلال أعماله الفنية؛ حيث نرى التركيز على أن يكون ذكر البصرة في مواضع كثيرة، ولكنها غير مكررة حتى يستطيع الباحث أن يكون ملامحه الذاتية، وانطباعه الشخصي عن هذا الإقليم، ولذلك فإنه يصدر به حكاياته في البخلاء؛ فيأتي موضوع «قصة أهل البصرة من المسجدين»⁽¹⁾، بعد رسالة سهل بن هارون وطرق أهل خراسان، ونحن نعلم ما كان للمسجد من وظائف أساسية في الانتشار المعرفي وتأصيل المفاهيم، ومناقشة وتعليم الدرس البلاغي ذاته.

لقد كانت البصرة - كما يقول شارل بلات - «في بادئ أمرها سيفساء من اللغات والتنوع اللغوي، ورغم ذلك كان هناك توحيدًا لغوي ونهضة فكرية بارزة»⁽²⁾.

ولا ينفرد الجاحظ باهتمامه بالحديث عن البصرة ومكانتها، ف(ابن قتيبة) يكرّر ذكرها في أعماله، خاصة تلك الأعمال الموسوعية، فتتفعل في نسيج هذه الأعمال لتكوّن وحدات أساسية، ولا يقف (المبرد) بعيدًا عن ذلك، فقد عنى بذكر البصرة أيضًا ورسم شخصيتها، ولذلك وحسب هذا الاتجاه الملح لذكر مكانة البصرة في التأصيل المعرفي، فإن دراستنا لتلك المدينة من الجهات المعرفية أمر تحتّمه دراسة المفهوم البلاغي عند الجاحظ، ذلك المفهوم الموسوعي الممتد - وستأتي دراستنا إذن في أربع نقاط هي:

النقطة الأولى - التشخيص المعرفي والمكاني :

إن ذكر البلدان يأتي في محورنا هذا كنقطة معرفية ملحة ومهمة؛ فالجاحظ ألحّ في غير موضع على تلك الأهمية، وصورة البصرة المشكّلة من معارف أعلامها ليست صورة جغرافية فتنأى بمسافات عن حيز دراستنا هذا، فهي صورة تشخيصية لملامح معرفية ثقافية

(1) الجاحظ؛ البخلاء، حقق نصّه وعلّق عليه: طه الحاجري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948م، ص 24.

(2) شارل بلات؛ المرجع السابق، ص 176، 177.

متداخلة ومتواصلة - يقول ابن قتيبة: «قال الحكماء: المدائن لا تُبنى إلا على ثلاثة أشياء: الماء، والكلأ، والمحتطب»⁽¹⁾. وقد أخذت البصرة بهذه الحظوظ دوراً مهماً فكانت مدينة لها تاريخها، تأصلت فيها المعارف المتداخلة، وعلت فيها أصوات متعدد، ونطقت بها السُن مختلفة تدل على جنسيات كثيرة عديدة، كلُّ بلسان أهله. ومن هنا يُشير الجاحظ إلى أهمية الاستقرار الجغرافي ووجود الأنهار الراوية للمعارف، فالماء العذب يشقُّ البصرة كلها؛ ويقول: «مرَّ غيلان بن خرشه الضمبي مع عبد الله بن عامر على نهر أم عبد الله الذي يشق البصرة؟ فقال عبد الله: ما أصبح هذا النهر لأهل هذا المصر؟ فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير، يعلم القوم صبيانهم فيه السباحة، ويكون لسُقياهم ومسيل مياههم، وتأتيهم فيه ميرتهم»⁽²⁾.

لقد جاء الجاحظ بهذا الشاهد ليعبر عن أثر استقرار المكان في الازدهار العلمي، وفي التكوين الثقافي، وبجانب كل ذلك فكان حلقة اتصال بالآخر من الأجناس المتعددة، فهو مرفأً ترتاده السفن من شتى بلاد المشرق⁽³⁾. وهذه الحركة الاقتصادية كان لها تأثيرها الواضح على طبيعة علم وأخلاق أهل هذا الإقليم - «فقد كانت الدماثة وتقديم حُكم العقل صفة لأهل هذا الإقليم»⁽⁴⁾.

واختلاط الناس بالبصرة ليس حديث عهد بالقرن الثالث الهجري الذي عاشه الجاحظ، وإنما كان هذا الاختلاط من قديم، فطبيعة التداخل النسيجي المتعدد للثقافات سمة هذا العصر الذي نتحدث فيه عن المفاهيم البلاغية.

(1) ابن قتيبة؛ عيون الأخبار، الجزء الأول، ص 313.

(2) البيان والتبيين؛ الجزء الثالث، ص 294.

(3) عبد الحميد الشلقاني؛ رواية اللغة، دار المعارف، القاهرة، 1971م، ص 64.

(4) المرجع السابق.

النقطة الثانية - البصرة والتماذج العقلي والثقافي منذ القدم :

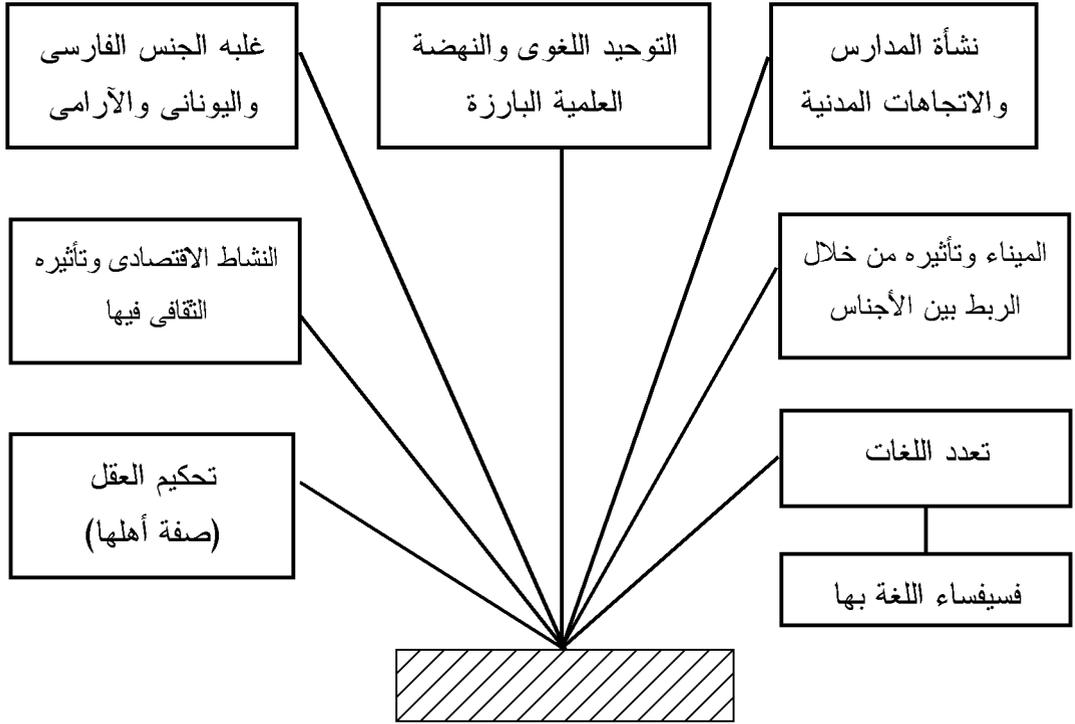
- 1 -

ولقد تأثر هذا الإقليم بماضيه العقلي السحيق، والذي تعددت فيه الجنسيات، وذلك قبل الفتح الإسلامي له، فقد عُرف بتداخل أجناسه - كما رأينا - الذي هو أصل لتماذج وتداخل ثقافي من الصعب فصله إلى وحدات مستقلة وأولية حسب تحول هذا المخلوط إلى مركّب، فانصهرت المعادن كلها فيه، وُصِّبَتْ في ذراته ثقافات متنوعة؛ دخلت فيها اللغة، والبلاغة والعلوم الأخرى - «فقد أُتيح لهذا الإقليم منذ أقدم عهوده ما يُتاح لمثله من الأقاليم التي تقع في طريق التجارة البحرية الواسعة، فكان ملتقى الأجناس الكثيرة والفعليات المختلفة والنوازع المتعددة، كان أهله خليط من الأمم المختلفة فوق أهله الأصليين، وهم من الجنس النبطي والآرامي، ولليونانيين فيه مقام ملحوظ»⁽¹⁾.

ولذلك كانت الحياة في هذا الإقليم متصارعة متداخلة، دفاقة بالعلم والمعارف، فلكل جنسية من هذه الجنسيات دوافعها وعلومها ومعارفها، وبالتالي لها بلاغتها بمفهومها الخاص، ولقد أدّى هذا التخالط للأجناس العديدة في البصرة إلى رسم طبيعة الحياة فيها بالحركة والتدافع - « فلقد أصبحت الحياة معقّدة أشد التعقيد، متدافعة أعنف التدافع، جيّاشة فوّارة بمختلف النزعات وشتى النزوات»⁽²⁾.

(1) طه الحاجري، الجاحظ، دار المعارف، القاهرة، ص 42.

(2) طه الحاجري؛ نفسه، ص 96.



(عناصر تكوين شخصية البصرة، والتأصيل المعرفي للأصول البلاغية)

وهذه الحياة الصاخبة في المجال العلمي الثقافي في البصرة عكست ملاحظتها وظلها على أعلامها؛ خاصة (الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد)، وهؤلاء هم مثلث التأصيل الأدبي والبلاغي في هذا العصر، فقد حدّد هؤلاء المعالم الواضحة للجانب الأدبي.

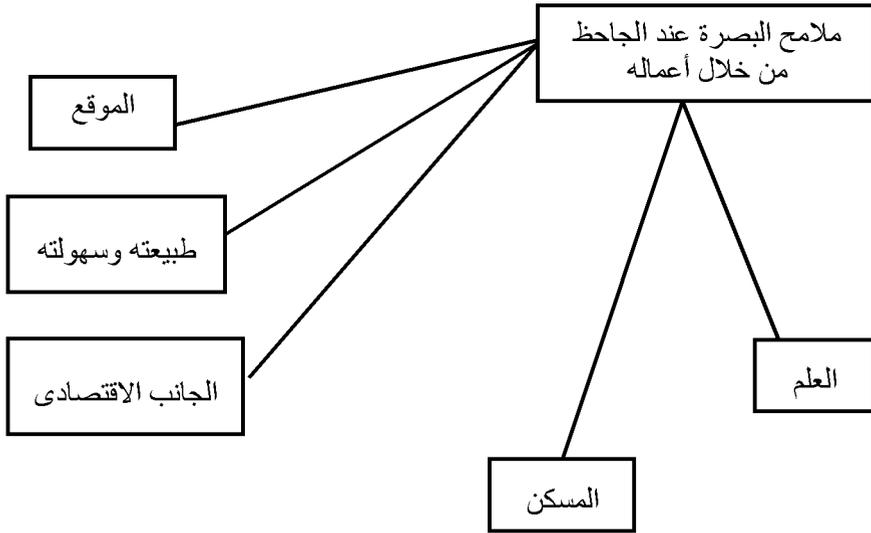
- 2 -

لقد تعامل الجاحظ مع البصرة بحبه الخاص الكبير؛ فكانت شخصيتها الأدبية والاجتماعية بكل خطوطها وظلها لا تفارقه، فهي معيّن استمد منها معظم خبراته المعرفية، إنه حب الأوطان والديار، الذي تملّكه وأشار إليه في رسالته «الأوطان والديار»، ولذلك فقد قال

عنها: «كان يقال الدنيا كلها للبصرة»⁽¹⁾.

فهذا هو المدخل الخاص لرؤية الجاحظ المكانية لهذا الإقليم، ولا يمكن لدارس الرؤية البلاغية عنده أن يتعد عن دائرة التكوّن الاقتصادي والاجتماعي، والتي تفرز الاهتمام الثقافي في هذا الإقليم خاصة.

لقد كانت الحياة في هذا الإقليم سهلة ليّنة غير مكلفة، وتلك من الأمور المساعدة للانتشار الثقافي والتعدد المعرفي، ولذلك فإن الجاحظ كان حريصًا - أيضًا - على الإشارة إلى هذا التفضيل الاقتصادي للبصرة، وهو عامل أساسي في التأصيل المعرفي والاستقرار المعرفي - يقول: «وليس في الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لا يُغريها النقد، وكل مبيع بما يمكن، والشامات وأشباهها الدينار والدرهم بها عزيزان، والأشياء بها رخيصة لبعده المنقل»⁽²⁾.



ملاح البصرة عند الجاحظ من خلال أعماله

(1) الجاحظ؛ رسالة الأوطان والبلدان - ضمن رسالة الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الرابع، ص 138.

(2) الجاحظ؛ رسالة الأوطان والبلدان، ص 145.

ولم يقف الجاحظ عند هذه الخطوط، بل أسهم في وضع ورسم خطوط أخرى لتكتمل ملامح الصورة التشخيصية لهذا المكان، وبالتالي تظهر ملامحه العلمية بتأثيرها - ولهذا فقد أشار إلى مسكن الإنسان وسهولته ورخصه وراحته أيضًا⁽¹⁾.

النقطة الثالثة - الصراع بين البصرة والكوفة :

- 1 -

والاهتمام البارز بحيز المكان ونشاطه أدّى إلى توليد الصراع المعروف بين المساحات المكانية؛ من حيث دينامياتها المتعددة في كل الأمور، فالصراع المعرفي بين البصرة والكوفة ثابت في حركة العلم، وهو مما أدّى إلى إيجاد اتجاهات عكسية مخالفة، كلٌّ يحاول إثبات رأيه، وهذا الصراع أدّى إلى إثراء الدرس اللغوي، والنحوي، وكذلك البلاغي، وعمل على نشأة المدارس والاتجاهات وتدعيم كل اتجاه ومدرسة بالآراء والحجج، وانتشرت الفرق، وعلا شأن الوظيفة البلاغية التي هي إبلاغ في ذلك الوقت. فقد عاش الجاحظ - بعمره المديد - الصراع المحتدم أواره بين البصرة والكوفة، وهذا الصراع كان يزكيه حب وهوى بين البلدين، كلٌّ يتعصب بحبه وهواه إلى مكانه. وهذا الاختلاف الحادث بين البصرة والكوفة يرجع إلى اختلاف المزاج العقلي لكل من المصريين، والعصبية بين المصريين لا تقتضي بذاتها اختلافًا بينهما؛ فهي ليست أكثر من اندفاع الكائن الاجتماعي بطبيعته لحماية كيانه وبروز ذاتيته للدفاع عن نفسه إزاء كائن اجتماعي آخر ينافسه على خطوط الحياة، فهي نزوح طبيعي يقوّى في ذلك الكائن الاجتماعي شعوره بنفسه ليكون أشد تماسكًا⁽²⁾.

واختلاف المزاج العقلي بين البصرة والكوفة ألقى بظلاله على طبيعة التفكير، وبالتالي على جوهر اختيار المفاهيم والمعارف، وكانت البلاغة بمصطلحاتها ووظائفها من أهم العناصر التي عاجلها هذا المزاج الخاص. ومن هذا المنطلق - منطلق شخصية المكان - ومزاجها

(1) نفسه؛ ص 145.

(2) طه الحاجري؛ الجاحظ، ص 75.

وتأثيراتها كان اهتمام الجاحظ الكبير والمَّلح في ضرورة ذكر البصرة في «البيان والتبيين» - موسوعة الدرس البلاغي العربي.

فيقول مبيناً فضل البصرة، بل وفضل رجالها وذلك من خلال استشهاده بخطبة الأحنف بن قيس؛ يقول الجاحظ عن أحنف: «قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصَلَّى على نبيه: يا معشر الأزد وربيعه، أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصَّهر، وأشقاؤنا في النَّسب، وجيرانا في الدار، وَيَدُنَّا على العدو، والله لأزد البصرة أحبَّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفي أحبَّ إلينا من تميم الشام»⁽¹⁾. فذلك الملمح يُبرز طبيعة الرؤية والتفكير، كما يُشير إلى هذا التفضيل الذي لا يقف عند الجاحظ وحده، بل يبدو في مظاهر كثيرة، لها دينامياتها في السير المعرفي، وفي آليات الرؤية.

- 2 -

ويلح الجاحظ على رسم صورة البصرة بنبضها الحي وأثرها في طبيعة نفوس أهلها بطريقته المعروفة في تشخيص الأمور - فيقول: «وقال آخر - يقصد غير الأحنف -: ما أسى على البصرة إِلَّا على ثلاث: رطب الشكر، وليل الخزيز، وحديث أبي بكر»⁽²⁾. وبالطبع فإن هذا القول يكرَّر القول السابق بالتفصيل ولكنه يضع أسباباً له، وهذا ما أراده الجاحظ نفسه من نقله لهذا القول؛ لأنه يقوى الظاهرة ويبحث عن كل دقائقها. ويأتى الجاحظ بمثال آخر «البيان والتبيين» مدلولاً على مكانة البصرة في تأصيل النَّسب؛ يقول: «عن (عبد الله بن زياد): أنه صعِد المنبر بعد موت (يزيد بن معاوية)، وحيث بلغه أن (مسلمة بن ذؤيب الراحي) قد جمع الجمع؛ يريد خلعه، فقال: يا أهل البصرة أنسبوني، فوالله ما مهاجر أبى إِلَّا إليكم ولا مولدى إِلَّا فيكم، وما أنا إِلَّا رجل منكم»⁽³⁾. فالمكانة السياسية التي نلاحظها من هذه القول تُضيف إلى ملامح البصرة ملمحاً بارزاً فيربط الجانب المعرفي بالجانب المكاني؛ فتجتمع له قوة إلى قوة.

(1) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص 135.

(2) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص 37.

(3) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص 190.

النقطة الرابعة - مساجد البصرة والتأسيس البلاغي :

- 1 -

ويهتم الجاحظ اهتمامًا كبيرًا بإظهار دور المسجد الخاص بالتأسيس المعرفي في مدينة البصرة، فيقدّم رؤيته المؤسسة على الاستشهاد الفعلي في المجالات المتعددة؛ فيقول عن حلقات مساجد البصرة واتخاذها مجالاً للتعليم: «وكان جعفر ابن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن في مسجد البصرة»⁽¹⁾. فدور المسجد كان واضحًا في تأسيس الجانب المعرفي، وفي انتشار حلقات العلم، ودراسة القرآن الكريم، وهذه من الأمور التي أنشأت البلاغة العربية؛ فالوجود البلاغي بدأ بهذه الحلقات، وبدأ في النظر في تفسير وفهم القرآن الكريم، ومحاوله معرفة جوانبه الإعجازية عن طريق دراسة اللغة والبلاغة، والجاحظ - بذلك - يُشير تلميحًا إلى فضل البصرة في التأسيس البلاغي.

ومن هذه الإشارة الجاحظية تتولد رؤية أخرى مقصودة وهي التنبيه على دور الخطابة وأهميتها في مساجد البصرة، وبصفة خاصة المسجد الجامع. ومن المعروف أن البلاغة العربية نشأت في أحضان الخطابة، فهي الميدان الذي شاهد ميلادها، وعاصر تطورها، ووسمها بصفاتها الخاصة؛ فهي فن القول⁽²⁾ القول الشفاهي أولاً، والذي من آلاته رباطة الجأش، وقوة التعبير، وفصاحة القول، ولهذا فقد حرص الجاحظ على ذكر مكانة الخطابة في البصرة، وذكر أول من جمع الناس بالمسجد الكبير وخطب فيهم - يقول الجاحظ: «وأول مَنْ جمع الناس وخطب فيهم عبد الله بن عباس، وأول من عُرف بالبصرة بن عباس، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ففسّرَها حرفاً حرفاً، وكان يسيل غرباً»⁽³⁾.

وبالطبع فإن استشهاد الجاحظ بهذا الموقف له دلالاته في التأسيس المعرفي للبصرة بمكانها

(1) نفسه، الجزء الأول، ص 276.

(2) أمين الخولي، فن القول [حيث يُشير إشارةً واضحةً إلى الصلة القوية بين الأسلوبية والبلاغة؛

(3) الجاحظ؛ البيان والتبيين، ط 1، ص 85.

ومكانتها، وهو - أيضًا - إشارة إلى جذور النشأة البلاغية التي كانت تردف مع الخطابة - «فالخطابة عنده بمعنى البلاغة؛ أتت في كثيرٍ من النصوص التي أوردها ملحوظًا فيها معنى الخطابة، وكثيرًا ما نراه يضع لفظي (البلاغة والخطابة) في جملة واحدة مترادفين كما يضع كلمة (البليغ) مرادفة لكلمة (الخطيب)»⁽¹⁾.

ولأن البلاغة عند الجاحظ ردت مع الخطابة فقد اهتم بالإشارة إلى الأعلام وإلى الشخصيات المهمة التي اعتلت منبر مساجد البصرة وخطبت فيه كنوع من التأصيل المعرفي، فكان حرصه على ذكر كثير ممن أعتلى منبر البصرة وخطب فوقه - يقول عن أحد أعلام الخطابة؛ وهو سوار بن عبد الله «وكان سوار بن عبد الله أول تميمي خطب على منبر البصرة، ثم خطب عبد الله بن حسن وولّي منبر البصرة أربعة من القضاة فكانوا قضاة أمراء: بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وسوار، وعبيد الله، وأحمد بن أبي رباح؛ فكان بلال قاضيًا ابن قاض ابن قاض»⁽²⁾.

- 2 -

وذكرُ أعلام الخطابة هدف مقصود لذكر وتاريخ الدرس البلاغي نفسه، ولهذا فقد عنى الجاحظ بذكر خطب أصحاب الخطب الشهيرة، وضمّن «البيان والتبيين» متونًا متعددة من خطبهم استكمالًا للدائرة المعرفية البلاغية التي يرسمها. ولا ينسى الجاحظ التنويه بأحسن الخطباء لسانًا وتعبيرًا؛ فيورد قول الحجاج عن أخطب الناس في البصرة فيقول: «كان الحجاج يقول: من أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة، إن شاء خطب، وإن شاء سكت - يعنى الحسن - فيقول: لم ينصّب نفسه للخطابة»⁽³⁾.

ولا يقف الجاحظ عند هذه الخطوط؛ ولكنه أراد توضيح شيوخ البصرة أصحاب القول

(1) عبد العزيز عتيق؛ في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ص 120.

(2) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 294.

(3) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 101.

الشهير بين الناس، فيورد الأقوال المأثورة والتي تربط بين المكان وعبقريّة الشخصية - فمن ذلك قوله: «وكانوا إذا ذكروا البصرة، قالوا شيخها الحسن، وفتاها بكر»⁽¹⁾.

وإذا كان هذا هو موقف الجاحظ المؤصّل المؤرّخ الدارس للفهم البلاغي، فإن ابن قتيبة العالم الفقيه يسير مع الجاحظ في هذا الاتجاه؛ وهو ابن الكوفة المتعصب لها، فيشير بكل قوة إلى أهمية قضاة البصرة، وإلى أهمية اختيار هؤلاء القضاة وولايتهم على العراق، حيث يقصد الكوفة⁽²⁾.

(1) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 389.

(2) يُراجع: ابن قتيبة؛ عيون الأخبار.

البُعد الثالث - الشخصية وعبقريّة المعرفة :

يأتى هذا البُعد الثالث متصلاً بالبعدين السابقين، بل هو امتداد لها؛ فشخصية المكان وعبقريته وشخصية الزمن وعبقريته - أيضاً - لهما التأثير البيّن في رسم شخصية وعبقريّة الجاحظ، وفي تحديد ملامح الثقافة لها؛ تلك الثقافة التي صنعت نظرياته المعرفية المتعددة، بل لقد سما الجاحظ فوق الزمان والمكان - فقد يسمو الكاتب فوق الزمان والمكان، فيكون كالنجم الخالد الذي يُمكن أن نلاحظه في أزمان مختلفة وفي أماكن متباعدة، ويبقى دوره هو هو يُبهر الناظر إليه، ويشد المتطلع إليه⁽¹⁾. فلقد ارتقى الجاحظ بعبقريته وصنع نظريته المعرفية الجاحظية، والتي بدونها لا يُفهم علمه الواسع الكثيف، فشخصية الجاحظ - ذاتها - ظاهرة أدبية ثقافية، لا يُفهم الأدب بدونها، ولا يُفهم العلم العربي بدونها - أيضاً -، وبالتالي لا تُفهم العناصر البلاغية بغيرها - «فقد عاش فترة عرفت عددًا من التحولات والمتعرجات الحاسمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وفي ما كتب الرجل شهادة عما يمكن أن يعبرَ أعمق تعبير عن تلك التحولات وأهمها»⁽²⁾.

إنَّ الحديث عن مفهوم البلاغة بدون درس شخصية الجاحظ وفحص ثقافته محاولة للوصول إلى جذور أسسها المعرفية ضرب من الهذيان، وإقصاء لطريق المفهوم البلاغي عنده، بل في عصره الذي هو - كما وصفوه - عصر التأسيس، فرسم شخصية الجاحظ المعرفية هو رسم لشخصية عصره وشخصية المكان الذي نشأ فيه أو اتخذه ساحة عملية وحقولاً فعلية لتجاربه العلمية أيضاً. ومن هنا كان لهذا البُعد أهميته المميزة، كما له نقاطه التقسيمية الخاصة؛ وهي :

(1) انظر: داود سلوم؛ الجاحظ مفكراً معاصراً، مجلة المورد، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والفنون، العراق، المجلد السابع، العدد الرابع، 1978م، ص 17.

(2) حمادى صمود؛ التفكير البلاغي عند العرب، منشورات كلية الآداب، تونس، الطبعة الأولى، 1981م، ص 138.

النقط الأولى - الأصل والانعكاس :

- 1 -

لقد عاصر الجاحظ ثقافات أجنبية متداخلة في عصره، فكانت نتاج تغلغل ثقافي قديم، وهذا أمر لا يُمكن إنكاره، فهناك الثقافات الهندية والنبطية والفارسية⁽¹⁾. إنَّ الخليط السكاني من شتّى بقاع العالم - والذى أشرنا إلى وجوده خاصة في مدينة البصرة بشكل بارز - له أهميته وملاحظه في التكوين العقلي لسكان هذا الإقليم، وله تأثيره المعرفي الخاص عند الجاحظ؛ حيث صنع ملامح ثقافته - «فهو الأديب بعلوم العصر، والتَّهَمَ كل ما بداخل البصرة من علوم العصر الهليني، وقد عرف الفارسية وكان ينقل إلى كتابته بعض تعابيرها، وتلقَّى علوم الحديث كأى رجل من رجال الدين، وقيل: أنه اهتم نسيبًا بالقراءات وأخذ اللغة عن الأصمعي وأبى زياد الأنصاري؛ وكلاهما بصريان، ومن ثمَّ أصبح موسوعة حتى جرؤ فتكلَّم عن حالات دقيقة عن الحيوان»⁽²⁾.

ولم يكن الجاحظ فردًا من هذا الأمر وحده، فإن أشهر العلماء في عصره قد نحووا هذا الاتجاه، فظهرت ثقافتهم المتعددة الجوانب، وكثرت اهتماماتهم وتلميحاتهم إلى الأمم الأخرى، وإلى أثرهم الثقافي، فتغلغلت في نسيج معارفهم - فهذا ابن قتيبة؛ يُشير في معارفه، وفي عيون الأخبار إلى الثقافات المتعددة للجنسيات المختلفة وأثرها في التكوين الثقافي، وفي أذواق الناس العامة، وذلك في حيز البصرة وبغداد والكوفة⁽³⁾. ولأن هذا التكوين المختلط والمكوّن لسبيكة منصهرة عن عدة ثقافات لعدة جنسيات، فقد جاءت المفاهيم البلاغية - وفقًا لذلك - انعكاسًا لهذا التكون المتداخل والمنصهر أيضًا.

(1) يُنظر: أحمد كمال زكي؛ الحياة الأدبية في البصرة، دار المعارف، القاهرة [حيث أشار إلى هذا الأمر بتوسع متخصص، ص 132 وما بعدها].

(2) أحمد كمال زكي؛ الحياة الأدبية في البصرة، دار المعارف، القاهرة، ص 134.

(3) هذه الظاهرة متمثلة بشكل بارز عند: الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد.

- 2 -

ولقد صنع الجاحظ لنفسه سمة أدبية مميزة؛ حيث اعتمد على الإسهاب الناتج من عمق ثقافته المتنوعة، كما ساعدت هذه الثقافة على دقة ولطف الاحتجاج عنده، وبذلك كان زعيم مدرسة أدبية تنتمي إلى الإسهاب ولطف الاحتجاج، ودقة التبيين⁽¹⁾. وهذا الاتجاه الفنى الأدبى كان له آثاره الخاصة فى رسم اختيارات الجاحظ للمفاهيم البلاغية؛ حيث تكتمل دائرة السياق التكويني الموسوعى، فالإسهاب انعكاس للثقافات المتعددة التى جمعها: الثقافة البيانية ولطف الاحتجاج؛ الذى يدل على الجانب العقلى المتسع عنده - كذلك -، ودقة التبيين أمرٌ دال على صنعته الفنية المائزة فى المجال البلاغى.

إنَّ شخصية الجاحظ المعرفية لا تنفصل - بحالٍ من الأحوال - عن مفاهيمه، فاختياره منهج إسهابى وطريقة أدبية وأسلوب يتسم بهندسة مقصودة لا عشوائية.

النقطة الثانية - دينامية التلمذة :

- 1 -

فى خضم هذا العصر الذى عايشه أبو عثمان استطاع أن يتفاعل مع كل الاتجاهات الفنية المعرفية؛ فقد عاصر الجاحظ هذه الفترة الموسومة بالتطور العلمى والثقافى، وذلك فى عصرٍ عُرف بالاستقرار فى كل جوانب المعرفة، لقد ازدهرت الترجمة وتنوعت المشارب والميول الأدبية المتعددة، وبجانب الترجمة ترى المختارات وتشاهد الموسوعات المعرفية، وتأتى المذاهب والاتجاهات الفنية للشعراء والأدباء، وبجانب كل ذلك نرى المؤلَّفات النقدية والبلاغية. وتحرك الجاحظ ليلم بكل هذه الأبعاد، عاملاً على احتوائها شغوفاً بكل ما فى عصره، لا يميل الاطلاع، ولذلك تحرك حركة غير متوقفة، حركة دائبة ليلم بكل الأبعاد المعرفية. وتواصلت جهوده واتصالاته للتلمذة ولأخذ العلوم بشتى معارفها ومشاربها كذلك، فقد اتصل بعظماء فى الدين والآداب؛ مثل (الأصمعى، وأبى زيد الأنصارى، وأبى

(1) عبد السلام هارون؛ قطوف أدبية، ص 170.

عبيدة معمر بن المثنى، والأخفش، والنظام، وإبراهيم بن سيار البلخي، وصالح ابن جناح اللخمي)، وأخذ اللغة والأدب عن الثلاثة الأولين، والنحو عن الأخفش، والكلام عن النظام، والحكمة عن ابن جناح⁽¹⁾.

- 2 -

ولقد أخذ (الأصمعي) بنصيب كبير عند الجاحظ في حيز الرواية عنه، والأخذ منه، والأصمعي هذا عُرف باتصاله الوثيق بالأعراب والنقل عنهم، عُرف بسياحاته الطويلة في سبيل العلم، ويظهر حيِّز الاهتمام برواية الأصمعي عند الجاحظ في ثنايا أعماله، حيث يردّد دائماً قوله المعروف (الأصمعي قال)، أو (قال الأصمعي). والمعروف أن الأصمعي كان بدوره - موسوعة علمية كبيرة؛ فقد كتب في كل مجال، وهو انعكاس لعلوم العصر الذي عاشه⁽²⁾. ونستطيع الاطلاع على الطبيعة المعرفية للجاحظ؛ وذلك من خلال حديثه عن جمعه لمواده العلمية وتلمذته على يد الأساتذة، ورحلاته في سبيل ذلك - حيث يقول: «ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل، ورأيت عامتهم وقد طالت مشاهدتي لهم، لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المتخبة، وعلى الألفاظ السهلة العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمّرتها من الفساد والقديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب عمّ وعلى ألسنة حذّاق الشعراء أظهر»⁽³⁾.

(1) محمد على كرد علي، أمراء البيان.

(2) أحمد كمال زكي؛ المرجع السابق، ص 135.

(3) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الرابع، ص 24.

وهذا الكلام المسهب يدل على منهج الجاحظ المعرفي من خلال جهده الذاتى فى التحصيل والتنقيب، من حيث عرضه فى موسوعته البلاغية «البيان والتبيين»، وبالطبع فإن هندسة وضع الكلام فى حيزه المكانى هندسة مقصودة ومصنوعة لدى الجاحظ، فالتنسيق المنهجى جعله ينظر فى المساحات المرسومة، كما جعله يضع قوله فى أماكنها التى تولدت بها دلالاتها، وكتاب «البيان والتبيين» وما يشمله من اختيارات كثيفة عديدة هو منهج - أيضًا - قصده الجاحظ، فقد تساوق وانتظم مع هذه الإشارة ليؤكد عرضه وطريقته.

إذن والجاحظ بهذا القول يمثل ظاهرة نقدية تراثية تحتاج لقراءة أخرى غير هذه القراءات التقليدية التلخيصية التى شملته بحثًا ووصفًا. إنَّ الظاهرة الجاحظية حقل فسيح للقراءة النقدية الجديدة يُبعدها النظرى التطبيقى⁽¹⁾؛ من حيث وصف العمليات والتصورات أو الآليات العقلية التى تقوم عليها عملية القراءة هذه⁽²⁾؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الجاحظ كشخصية معرفية معينة تخضع للقراءة الجديدة من المنظور التطبيقى كذلك، فالقراءة النقدية الجديدة فى جانبها التطبيقى تعتمد على تقديم قراءة أو قراءات تطبيقية متعددة، حيث تدخل الشخصية موضوعًا مهمًا لها⁽³⁾.

- 3 -

فموقف الجاحظ بهذه الخيوط التكوينية وبمجهوده البارِع تُعدُّ شخصية ذاتية تنضم إلى نصوص التراث المتعددة، والتى هى بحاجة إلى قراءة نقدية جديدة؛ فروافد ثقافته المشار إليها تشكّل نسيجًا محكمًا ودقيقًا للنص التائىرى عنده، نص التكوين المعرفى المفتوح بأبعاده غير

(1) انظر: جابر عصفور؛ قراءة التراث النقدى مقدمات منهجية، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1992م، ص 19 [حيث يُشير إلى منهجية القراءة النقدية الجديدة للتراث، والمتمثلة فى الدلالة المزدوجة المكونة لمستويين هما: الأول: المستوى النظرى، والثانى: المستوى العملى التطبيقى، حيث وضع أصولاً دقيقة لآليات القراءة الجديدة].

(2) نفسه؛ ص 19.

(3) نفسه، ص 19.

المحددة، فبحث عن شعرية أوجه الإعراب المتعددة، ليكون مركزاً للدراسة وشاهدًا لمنطلقات علمية مقصودة، مما يدل على تطور الاستخدام النحوي، والذي لم يكن مقصوراً على معرفة الصواب من الخطأ الكلامي، وهذا أمر له وظائفه في الاحتجاج البلاغي وتأويل النص بعدة زوايا ورؤى. كما يدل نص الجاحظ هذا على العناية بالتكوين الفني للقول وتركيبه في سياقه الإبداعي، وهذا ما يُشير إلى تطور الرؤية البلاغية المهمة بالنسيج الفني للكلام ذاته، من كل زواياه التي يحرص عليها الجاحظ دائماً في قوله، وذلك من جهة الموسيقى والرونق والمعاني المرتبطة بألفاظها وسياقاتها، وهذا أمر لا يتأتى إلا للخاصة المبدعين.

النقطة الثالثة - الانتقاء وخاصة المعرفة :

- 1 -

اعتمد الجاحظ - كما اعتمد معاصروه من النقاد - على ظاهرة الانتقاء، وهي ظاهرة تعبر عن أهم خصيصة في التشكيل الأسلوبي، فالاختبار لا يأتي وفق أمور خاصة تنبع من رؤى معينة، ويدخل في حيز الانتقاء هذا اختيار الجاحظ وأسلوبه مع أساتذته الذين أثروا فيه وتعصّب لهم، فأكثر من ذكرهم في أعماله؛ حيث يأتي هذا الذكر من جوانب فنية وليست جوانب استشهادية وحسب. فخيارات الجاحظ عناصر مقصودة لمواده ورؤاه، ومفاهيم البلاغة عنده هي اختيارات، كذلك جاءت في سياق كلي عنده، ولهذا لا يمكن فصلها عن سياقات التكوين الأخرى، وترتبط الاختيارات هذه بأعلام اهتم بهم الجاحظ وحرص على أن يكون لهم مهمة الأستاذية؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن التكوين المعرفي لم يقف عنده أمام الأعلام المذكورة في ثنايا كتبه، بل بث في أعماله كلها اختياراته المكوّنة لرؤى متماسكة؛ وإن كانت تبدو متشعبة، فالتكوين المعرفي عنده - إذن - هو تكوين متواصل، ومتشعب في آنٍ واحد، ومن الصعب تحديده، فهو ممتد امتداداً فسيحاً، ومع ذلك فقد كان أبو عثمان ماهراً شديد المهارة في تحكّمه في خيوط الثقافات المتعددة، يختار منها ما يتناسب مع طبيعة منهجه ورؤيته، وحتى في اختيار من أخذ منهم، فهي اختيارات دقيقة تحرّكها

دينامية «البيان والتبيين» الشاملة لأعماله كلها. فاختياره للأصمعي لرواية اللغة وإقراره من ثمَّ بما جاء به؛ من باب مشاركته كل ما قدم من أمور، حيث اعتمد الأصمعي - بدوره - على ذات المنهج الانتقائي، فهو - إذن - منهج اختياري سائد في تشكيل الثقافات والمعارف في عصر الجاحظ.

ولقد اعتمد الجاحظ على إظهار جوانب العلم والمعرفة كلها عند الأصمعي؛ فكانت اختياراته متقنة ومتنوعة، حرص فيها على إظهار كل الجوانب التي أتقنها الأصمعي، وبذلك لا يقدم الجاحظ معارف متعددة للأصمعي فحسب، ولكن يضع القارئ على نظرية المعرفة، فيؤدى ذلك إلى محاولة معرفة الأصمعي بكل معارفه وعلومه. وهذا الأسلوب نَهَجُ عُرِفَ به الجاحظ، فاختياراته البلاغية جاءت وفق هذا الاتجاه، الأمر الذي يجعل قارئ الجاحظ يتنَبَّ عن أبعادها، فقد أضاء له كل الجوانب، فعليه - إذن - البحث الجاد في ذلك، يتوج الجاحظ رؤيته للأصمعي عندما يعرض قول الأصمعي نفسه «وصلت بالعلم ونلت بالملح»⁽¹⁾.

- 2 -

ولم يكن الاستشهاد بالأصمعي والأخذ بعلومه وقفاً على الجاحظ وحده في عصره، ولكننا نرى سريان هذه الاستشهادات منتشرة عند (ابن قتيبة والمبرد) كذلك، ولذا يؤصل الأصمعي الرؤية عند مثلث العلم والمعرفة؛ وهم: (الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد).

وامتد هذا التأثير في عصور متتابعة عند (أسامة بن منقذ والبيهقي) وغيرهما. إن التداخل المتشعب كان ديدن عصر الجاحظ ورفاقه، فقد كثر المعلمون وانتشر علمهم في كل مكان؛ نقلاً وكتابة، ولهذا حرص الجاحظ على الأخذ من أصحاب العلم الراسخين فيه، فمن الذين شكَّلوا الجانب المعرفي عنده - بجانب الأصمعي - (أبو عبيدة معمر بن المثنى)؛ الذي قال عنه

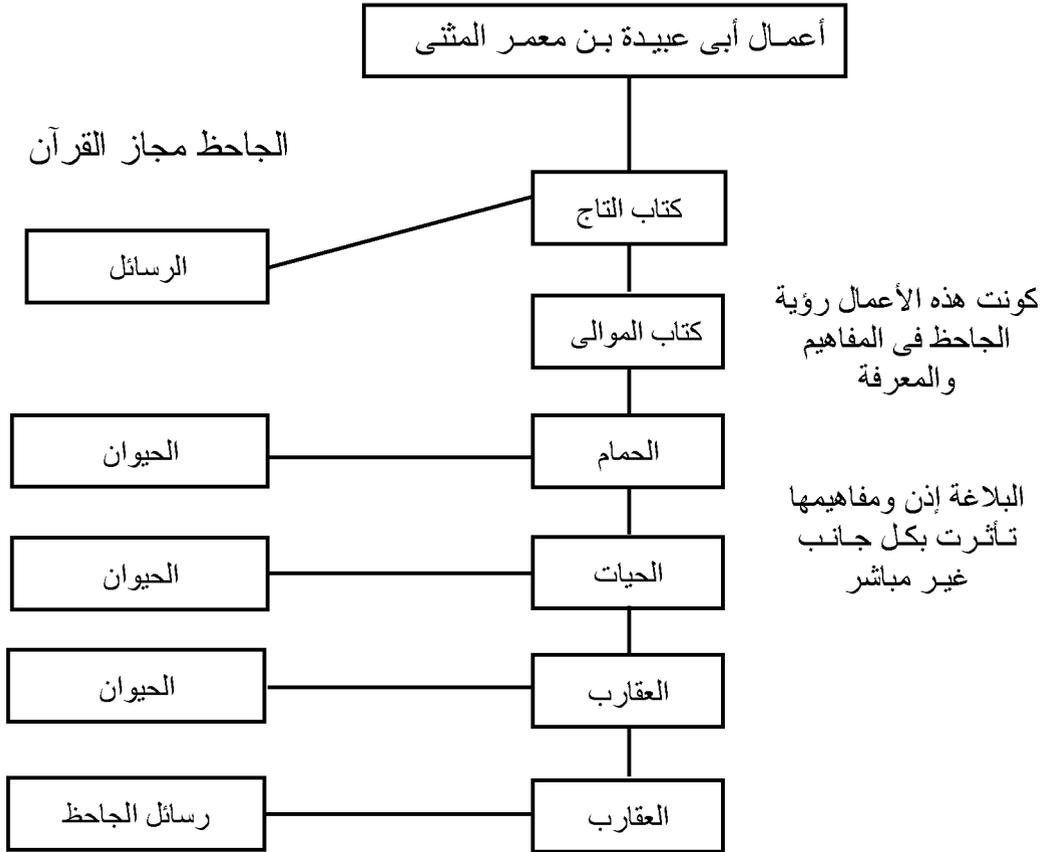
(1) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 199.

ابن خلكان: «بأنه ليس في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم لجمع العلوم منه»⁽¹⁾. ومن أشهر كتب أبي عبيده «مجاز القرآن» الذي تأثر به الجاحظ كثيرًا، ويُعدُّ من الكتب التي أسست للمفهوم البلاغي وللدرس العلمي لها، كما تُعدُّ أعماله كلها دائرة معارف متنوعة تتماثل مع دائرة معارف الجاحظ نفسه؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن هذه الدائرة تتداخل بموادها العلمية مع دوائر المعارف الأخرى والتي ألفت في هذا العصر، ولهذا يُشير ابن خلكان إلى مؤلفاته بقوله: «ألف عشرات الكتب التي استفاد منها الجاحظ؛ مثل: كتاب مجاز القرآن الكريم، وكتاب التاج، وكتاب الموالي، وكتاب الحمام، وكتاب الحيات، وكتاب العقارب، وكتاب الزرع، وكتاب لصوص العرب»⁽²⁾.

وهذه المؤلفات هي مجالات اشتهر بها الجاحظ أيضًا، فلا شك أن لأبي عبيدة تأثيرًا كبيرًا في علوم الجاحظ ذاتها، فقد كتب الجاحظ في كل موضوعاته مؤلفات أبي عبيدة هذه خاصة الحيوان، ورسائله الشهيرة.. ونحن نعلم أن الجاحظ يضمن معارفه رؤاه البلاغية؛ أي أن هناك تأثيرًا معينًا في تشكيل مفاهيمه البلاغية، ومن هنا فإن فهم هذه المفاهيم لا يكتمل دونها الرجوع إلى تلك الأصول المعرفية التي استقى منها الجاحظ.

(1) ابن خلكان؛ وفيات الأعيان، الجزء الرابع، ص 323، ويُنظر كذلك: ابن النديم؛ الفهرست، ص 71.

(2) ابن خلكان؛ وفيات الأعيان، ج 4، ص 326.



- 3 -

أمّا العالم الثالث الذي رُفد الجاحظ من علمه الكثير فهو (أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري)؛ وقد كان أبو زيد هذا ثقة كبيرة في رواية اللغة، وهو أستاذ الجاحظ، كما عُرف عنه الشعب المعرفي المتسع. لقد كوّن هؤلاء الثلاثة زوايا المثلث المعرفي الواسع المساحة عند الجاحظ، فكل زاوية لها رسوخها الخاص ولها قوة بنائها الذي لا يمكن هدمها بحالٍ من الأحوال.

داخل هذا المثلث يتكوّن مثلث تنداح مساحته مع مساحة المثلث السابق ويتكون رؤس هذا المثلث من: (أبو الحسن المدائني)؛ وقد أخذ عنه الجاحظ كثيرًا وتردد اسمه في كثير من أعماله⁽¹⁾، فهو يمثل الزاوية الأولى من هذا المثلث.. والزاوية الثانية فيمثلها (هشام ابن محمد الكلبى)، وأما الزاوية الثالثة فيمثلها إمام العربية وعالمها وفتيها (الإمام الشافعى)، والذي يقول عنه عبد السلام هارون: «كان من أدق الناس خبرة بالعربية وأوسعهم فقهًا فيها، وأطّاعًا على أسرارها، وحسبك أن تعرف أن الأصمعى - وهو الأمام الأكبر - قرأ على الشافعى أشعار الهذليين وصحّهما»⁽²⁾. ولهذا فإن الجاحظ كان معجبًا به، فأخذ ينهل من علومه بعدما تبين له أنه أحسن العلماء تأليفًا - يقول: «نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفًا من (المطلبى)؛ كان لسانه ينظم دُرًّا»⁽³⁾.

فأخذه عن الشافعى كان انتقاء فنيًا، جاء بعد اطلاع ومدارسة متأنية، فتعلّم منه بلاغة التأليف، وجمال القول في العلم، ويضاف إلى هذه الروافد المعرفية عند الجاحظ رافد أساس ومهم، شكّل رؤيته المعرفية، ونظّم مفاهيمه البلاغية بخيوطه القوية عنده، وهذا الرافد هو الاعتزال؛ فمن المعروف أن البلاغة العربية نشأت في أحضان هذا الاعتزال، حيث كانت صناعة الكلام وسيلة لإثبات آراء المعتزلة وحججهم. والجاحظ ليس معتزليًا فحسب، ولكنه صاحب فرقة عُرفت بالجاحظية⁽⁴⁾. وقد شغف براءوس الاعتزال وأعلامه، فبث حديثه عنهم وعن اتجاهاتهم في ثنايا أعماله؛ خاصة «البيان والتبيين» - ولذلك يقول (شوقى ضيفًا): «ذلك الشغف وكان من أهم ما شغف به الاعتزال، وقد مضى يلزم أساتذته في عصره، ويستوعب كل ما كان عندهم، بادئًا بأبى الهذيل العلاف، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقتة، وكان من أهم

(1) عبد السلام هارون؛ قطوف أدبية، ص 171.

(2) نفسه؛ ص 171.

(3) نفسه؛ ص 172.

(4) عبد القاهر بن طاهر البغدادي؛ الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ص 129، وحديثه عن الفرقة الجاحظية.

من لزمهم النظام»⁽¹⁾. ويبدو ملامح هذا التأثير الاعتزالي الكلامي في خطوط متعددة وسمت أعمال الجاحظ بطبيعتها، فأخذ يتحدث عن أعلام الاعتزال حديثاً طويلاً متنوعاً، واهتم بصفة خاصة بواصل بن عطاء؛ المسمّى بـ(الغزال)، فصدر حديثه عن صفته مدافعاً عنه في أول موسوعته البلاغية «البيان والتبيين»، ولهذا الموضوع دلالاته الخاصة؛ حيث الانتقاء المكاني - أيضاً -، فالانتقاء المعرفي يحكمه منهج وضوابط عنده، ووضع هذه الانتقادات يحكمها انتقاء آخر في المكان.

ويأتى الدفاع عن واصل بن عطاء (رأس الاعتزال) من خلال إفراده لفصل خاص في وجه البيان؛ وسمى هذا الفصل «دفاع عن واصل بن عطاء»، وذلك من خلال حديثه عن الصراع الواقع بين واصل وبشار بن برد، ويلمس الدفاع عنه أيضاً جوانب شخصية؛ فيدافع عن سبب تسميته بالغزال - وذلك بقوله: «لأنه كان يُكثر الجلوس في سوق الغزالين، إلى عبد الله فطن الهلالي»⁽²⁾.

إن ذكر (واصل) في هذا الموضوع المهم تنبيه إلى البحث عن صفاته التي جعلته يتبوأ منزلة كبيرة في فن القول، رغم لباقتة المعروفة، ولكن إذا وجب القول تدفق كالسيل المنحدر في الوادي، فلا يترك مقالاً لقائل، ولا شبيهه لمشتبه، وهو بصير بمرامي الكلام وغاياته»⁽³⁾. وقد تبوأ (واصل) مكانته القولية الأولى كحُجَّة بائنة وكوسيلة أساسية لأصحاب الاعتزال، فجاءت شهرته من جهوده وصفته، وحُجَّتُه وبيانه، حتى وضعه الجاحظ متصدراً لبيانه وفائحاً لتبيينه، وذلك لأنه كان (خطيباً عليم الخواطر بالنفوس، حاضر البديهة، قوى الارتجال»⁽⁴⁾. فمنزلة (واصل) جاءت من هذه الصفات القولية، ونحن نعلم أن الجاحظ قد سوى بين الخطابة والبلاغة؛ فالخطيب عنده هو البليغ، والبليغ هو الخطيب، فجاء هذا الانتقاء لشخصية

(1) شوقي ضيف؛ العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ص 589.

(2) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 33.

(3) انظر: محمد أبو زهرة؛ تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، 1980م، ص 340.

(4) المرجع السابق؛ ص 211.

واصل بن عطاء موافقاً لمذهب الجاحظ، ومدعماً لرؤيته من جهة... لما جاء موافقاً لصفاته البلاغية القولية من جهة ثانية - ولذلك يقول ثابت بن قرة عن صفات الجاحظ القولية وحججه الناصعة: «أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين، ومدرة المتقدمين والمتكلمين؛ إن تكلم حكي سبحان البلاغة، وإن ناظر صارح النظام في الجدل؛ شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثيرة»⁽¹⁾.

ومن هذه الصفات القولية كان انتقاء الجاحظ للدرس المعرفي المشكّل لثقافته المختلفة؛ فكان انتقاؤه لأعلام الخاصية الاعترالية المدعم للرؤية البلاغية عنده، حيث أولع - أيضاً - بشخصية النظام بأبعادها الاعترالية، فذكر اسمه بما يُعرف عن عشر مرات في كتابه «البيان والتبيين»، ولهذا الذكر دلالاته المقصودة من جهة التأصيل البلاغي بالاتجاه الاعترالي، كما كرر ذكره في كتاب «الحيوان» بشكل مكثف؛ حيث ورد اسمه أكثر من تسع وستين مرة. ولم يقف الجاحظ عند هذا الذكر، بل أنه ركّز على أدائه والاعتداد بأقوابله - ويقول: «وخبرني أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام وكذا، لا ترتاب في حديث أن حُلّي عن سماع أعيان»⁽²⁾.

فالجاحظ يثق فيما يقول (النظام) أستاذ في الاعتزال، ولذلك يأخذ كل ما جاء عنه بدون ارتياب أو شك، ورغم ذلك لم يسلم النظام نفسه من انتقادات للمتددة الشخصية، فقد وصفه (بأنه أضيف الناس يحمل السر)⁽³⁾. وبهذا الوصف يطبّق الجاحظ «منهج التحسين والتقييح»، فقد سادت هذه الرؤى الشخصيات الاعترالية التي عرض لها في أعماله؛ فيتحدث عن العلاف (موسى بن موسى)، وسهل بن هارون الذي وصفه بالبخل؛ وكان إحدى شخصياته في كتابه «البخلاء»، برغم الإعجاب ببلاغته ومقدرته التعبيرية،

(1) المرجع السابق؛ ص 211.

(2) الجاحظ؛ الحيوان، الجزء الرابع، ص 222.

(3) الجاحظ؛ الحيوان، الجزء الخامس، ص 187، [أسلوب التحسين والتقييح أسلوب خاص بالاعتزال، ويمكن رؤية ذلك في أعمال الجاحظ خاصة في كتابه «الحيوان»؛ يُنظر: الحيوان، الجزء الأول، ص 88].

وتمثل هذه الرؤية الضدية عند الجاحظ رغبة معينة يتناول من خلالها الأمور، فيُظهر بها كل الجوانب المتصارعة، فتعد لذلك مَنَهَمًا مقصودًا استفاد من الانتفاء الاعتزالي إلى القائم على التحسين والتقييح. وتأتى كثير من آراء المعتزلة مبنوثة في نقايا أعمال أبى عثمان، وهذا تأسيس مهم لتناول مفهوم البلاغة. وشروط القول الحسن كما ورد في صحيفة تشرين المعتمر، وليس الإتيان بها كنوع من الأصول المشكلة للقول البليغ إلا من باب ربط الأصول البلاغية بالنهج الاعتزالي - «أى بمنابعها التى استقت منها هذه الأصول». ومن الاختيارات الدقيقة لأصول المعرفة عند الجاحظ ما أخذه عن الأخفش (أبو الحسن سعد بن مسعدة) فى النحو، وجلوسه عنده. ومن المعروف أن الأخفش كان واسع الإطلاع، وأكثر أئمة النحو البصريين بعد سيبويه⁽¹⁾. وبجانب هذه الصفات فقد كان الأخفش يعتنى بالعقل، ويهتم بالحدود والتعريفات معتمداً على الأدلة العقلية⁽²⁾. ورغم ذلك فقد أشار الجاحظ إلى الغموض الذى يكتنف كثيراً من كُتبه، فلم تكن كلها مفهومة ويبدو ذلك من حديثه القائل: «وقلت لأبى الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فليَمَ لا تجعل كتبك مفهومة كلها، وما بالنافهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ فقال: أنا رجل لم أصنع كُتبي هذه لله، وليست هى من كُتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلّت حاجتهم إلىّ فيها، فإنما كانت غايتى المثالة، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى الناس إلى فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير؛ إذ كنت إلى التدبير ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان، يكتبون لله بزعمهم، ثم يأخذ مثلى فى موافقته، وحسن نظره، وشدة عنايته، ولا يفهم أكثرها»⁽³⁾. ومن قول الجاحظ هذا وردّ الأخفش عليه نفهم عدة أمور هى :

(1) شوقى ضيف؛ المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976م، ص 95.

(2) راجع الحديث عن الأخفش وصفاته فى «المدارس النحوية»، ص 95 وما بعدها.

(3) الجاحظ؛ الحيوان، الجزء الأول، ص 91، 92.

أولاً: كان الجاحظ تلميذًا مخلصًا للأخفش؛ حيث اعتبره أستاذًا لا يبارى في علمه بالنحو والعربية، فجانب صفات الذكاء والذهن الثاقب، كان عالمًا بلغات العرب⁽¹⁾، وعنه قد أخذ النحو؛ وهو العلم الأول في ميدان المعرفة والتأسيس البلاغي.

ثانيًا: وجود الاستغلاق المتعمد في بعض الكتب في ذلك العصر، واعتباره منهجًا مألوفًا، وذلك نتيجة للتداخل المعرفي والثقافي، واتساع حيز المعارف وتشابكها.

ثالثًا: فنههم من هذا القول أن هناك جهدًا كبيرًا كان يُبذل في هذا العصر من قِبَل الكاتب، وكذا المتلقي، كما نرى العناية بالجدل والمناقشة ومراجعة التلميذ لأستاذه.

رابعًا: الحث على البحث العلمي والمناقشة، وكذلك المناظرة، وتلك أمور انتشرت بشكل أساسي في عصر الجاحظ.

خامسًا: إن إشارة الأخفش إلى النظام وإلى أعماله، التي يبدو فيها الغموض تدل على أن الجاحظ كان يتعاطف معه (النظام) كثيرًا، فاهتمامه بالتلمذة الاعتزالية على أهم أعلامها؛ مثل: (النظام، وثمامة بن أشرس، وأبي الهذيل العلاف)، إلى جانب شخصيات بلاغية أخرى أثرت في التكوين البلاغي عنده، ومنها شخصية سهل بن هارون، يظهر في ثنايا أقواله.

فجانب جلوس الجاحظ إلى أستاذه النظام وأخذه منه ومناقشة ومراجعة آرائه، فقد أخذ الكثير من ثمامة بن أشرس النميري، فنقل عنده في أعماله أقواله الحكيمة ورؤيته للحيوان، وهذا دليل على عناية المعتزلة بموضوع الحيوان الذي دُرِس من كل جانب، واعتمد عليه كرمز مهم له دلالاته الخصبية، وهم بذلك الاستخدام الرمزي يؤصّلون لأهمية الصورة البلاغية، وبخاصة الاستعارة بأبعادها التعبيرية.

وتتميز رؤية الجاحظ المعرفية لأعلام الاعتزال بالدفع الضدى، فهو يرسم لمعظم هؤلاء الأعلام صورة إيجابية ساخرة، عدا شخصية واصل بن عطاء، وهذا منهج بلاغي أيضًا، حيث يهتم ببلاغة التعبير إلى جانب بلاغة السخرية ذاتها. والجاحظ بذلك الاتجاه يقوم على رؤية

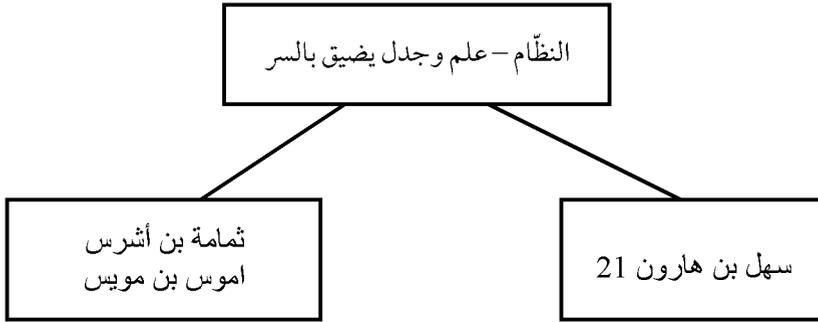
(1) شوقي ضيف؛ المدارس النحوية، ص 95.

تأصيلية عنده تعتمد على فنية المحاسن والأضداد، وبجانب كل هذه المعارف المتداخلة والمتقاة فإن الجاحظ لا يتوانى مطلقاً في توسيع دائرته الثقافية، بل يحرص حرصه المعروف على الانتقاء المتواصل، والذي يتساوق مع رغبته ومنهجه المميز. ولهذا تستمر ديناميته المعرفية ولا تفتأ تتحرك نحو كل اتجاه معتمدة على التحصيل والتلمذة. وتبرز في هذه الدينامية شخصية لها حركتها المعرفية البلاغية، وهي شخصية سهل بن هارون الشهيرة، فقد كان سهل من أهم الخطباء في الشعر والخطابة - كما رأينا - هي البلاغة ذاتها. ولهذا يقدم الجاحظ هذه الشخصية مبيّناً جوانبها المعرفية المتعددة؛ فيقول: «ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب، والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المخلدة، والسير الحسان المجوّدة، والأخبار المولدة (سهل بن هارون بن راهبوني) الكاتب، صاحب كتاب «بقلة وعفرة»، في معارضه كتاب كليلة ودمنة، وكتب الإخوان، وكتاب المسائل، وكتاب المخزومي، والهدلية، وغير ذلك من الكتب»⁽¹⁾.

فمن هذا الوصف لسهل بن هارون نستطيع استخلاص الجوانب المعرفية التي حرص عليها الجاحظ، وتابعتها مع سهل بن هارون؛ وهي:

- 1- الجمع بين الشعر والخطابة.
- 2- الرسائل الطوال والقصار.
- 3- الكتب الكبار والجوانب التأليفية، وهنا تأتي أهميتها باعتبارها آلات المعرفة في عصر الجاحظ -فتخليد الكتب يعنى ثبوت المعارف وتداولها.
- 4- الإشارة إلى التدوين في السّير واختلاف المعارف، بجانب الاهتمام بالروايات المتعددة.

(1) الجاحظ؛ الحيوان، الجزء الأول، ص 52.



الجانب الضدى وشخصيات الاعتزال عند الجاحظ ومذهب التحسين والتقبيح

ولم يلبث الجاحظ أن طبق مذهبه الضدى على شخصية سهل بن هارون، فعقد في «البخلاء» قصة عن بُخله وشُحِّه⁽¹⁾، بجانب وجاهته - يقول الجاحظ عن وصفه الإيجابي لسهل: «وكان سهل في نفسه عتيق الوجه، حسن الإشارة، بعيداً عن القدماء، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، بدقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبيل قبل التكشف»⁽²⁾.

ومن خلال الشخصيات التي استقى الجاحظ منها معرفته نراه يرسم صورة مقصودة لفن المناظرات، والتي تُعدُّ أساساً لقيام الدرس البلاغي من جهة الوظائف الإقناعية.

لقد عاصر الجاحظ الموجة الاعتزالية العارمة في عصره، شارك فيها مشاركته الفعالة، حيث كان طرفاً إيجابياً في كل فنون المعارف المتداولة آنذاك. وقد كانت هذه الموجة الاعتزالية - من جميع أطرافها - أكبر قوة فاعلة في تطور النقد الأدبي أثناء القرن الثالث، لا بأشخاص أصحابها وحسب؛ بل من خلال المتأثرين بها⁽³⁾. واهتمام الجاحظ - إذن - وإلحاحه على

(1) انظر القصة الخاصة بهذه الصفة في كتاب «البخلاء» للجاحظ، ص 9 وما بعدها.

(2) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 89.

(3) إحسان عباس؛ تاريخ النقد الأدبي، ص 69.

الاحتكاك الكبير بزعماء الاعتزال، والأخذ عنهم كان غرضًا طموحًا في ذلك العصر مع فاعلية النقد الأدبي؛ والذي ارتبط بالبلاغة ارتباطًا وثيقًا.

إن عرضنا للتأسيس المعرفي للسياق البلاغي عند الجاحظ يُعَدُّ حُمة أساسية في الدرس البلاغي المتسعة المساحة في عصر أبي عثمان نفسه، في عصر بحث علماءه عن تنوع المعارف، وجهدوا أنفسهم في حدها؛ حتى قال الجاحظ نفسه في إحدى رسائله: «وزعم معمر بن عياد السلمى أن العِلْمَ عشرة أجناس؛ خمسة منها دُرُكٌ بالحواس... والعلم السادس كالسير الماضية، والبلدان القائمة... والسابع: علمك بقصد المخاطب إليك وإرادته إياك، عند المحاوراة والمنازعة⁽¹⁾».

فكان حرص الجاحظ على تحديد المعارف وأجناسها من باب التحديد المعرفي لأصول البلاغة النقدية، ولذلك لم يكتف بموقف واحد يعبر عنها وإنما رجع إلى عدة آراء ومواقف، مدعماً وجهة نظره الملحة في المعرفة والثقافات المتعددة المتشعبة. ففي نفس الرسالة يعرض مرة أخرى لأجناس المعارف بقوله: «وزعم آخرون أن المعارف ثمانية أجناس؛ واحد منها اختيار، وسبعة منها اضطرار؛ فخمسة منها دُرُكٌ بالحواس الخمس، ثم المعرفة بصدق الأخبار؛ كعلم القرى والأمصار والسَّيَر والآثار، ثم معرفة الإنسان إذا خاطب صاحبه أن يوجه بكلامه إليه وقاصد به نحوه⁽²⁾».

فهذا المحور المعرفي يُعَدُّ إطارًا مؤسسًا للمادة المدروسة؛ مادة البلاغة بأبعادها ومفاهيمها، فهذا الإطار هو الحاكم للمادة والمسيطر على مساحتها، وهيئاتها وأشكالها المتعددة، إنه النسق المعرفي الواجب دراسته وفحصه من كل جوانب الفحص والدرس، وذلك لأنَّ مفهوم النسق المعرفي في الفكر الحديث يرتبط بالبحوث التي قدَّمتها دراسة الأطر

(1) الجاحظ؛ رسالة في المسائل والجوابات في المعرفة، الجزء الرابع، ص 51، وانظر حديثه عن باقى الأجناس في صفحتي 51، 52.

(2) المرجع السابق، ص 71.

الاجتماعية للمعرفة، وما انتهت إليه من تصورات للكشف عن تغير أشكال المعرفة وعلاقتها عبر العصور المختلفة.

وتأسيس هذا المفهوم في بحث الظواهر الأدبية والبلاغية ضروري لمتابعة التحولات التي تفرض على الباحث المعاصر اتخاذ موقف منهجي صحيح في التعامل مع المادة التي يتقدم لدرسها، ومعرفة علاقتها ببقية وحدات المنظومة التي تستمد منها مقولاتها⁽¹⁾.

(1) صلاح فضل؛ بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ع164، أغسطس 1992م، ص12.

محصلات المحور الأول

إنَّ دراسة المحصلات لكل جزء من جزئيات البحث تُعدُّ عملاً علمياً مهماً؛ حيث تعمل المحصلة على التحليل والإضافة، بجانب جلاء الرؤى التي عرضت قبلها، فهي - إذن - مهمة بحثية لها ضرورتها القصوى في الدرس العلمي، ولهذا الأهمية وضرورتها فإننا سنعرض لكل محور من محاور هذا العمل محصلاته الخاصة به، حسبما تقتضيه الحاجة البحثية.

ومحصلات (المحور الأول) ستُعرض في شكل وحدات، تشكّل كل وحدة رؤية استكشافية معينة.

الوحدة الأولى - الأصول وتكوين الفروع :

- 1 -

حرص الجاحظ حرصاً شديداً على العودة الدائبة لأصول كل شيء يدرسه، وشكّل هذا الحرص منهجاً فنياً معروفاً عنده، لأن الدراسة بدون معرفة منابعها ومواردها تُعدُّ خراجاً، كما يُشير إلى ذلك في رسائله، فالأجاء لعرض المفاهيم البلاغية عنده في شكل مباشر يعتبر إقصاء للمنهج العلمي الصحيح - وقد دأبت معظم الدراسات التي تتناول مفاهيم البلاغة وأبعادها على الاكتفاء بخطوات الحصر والجمع دونما ربط كل مفهوم بسياقاته وخبراته التي أنبتته، ولذلك يُعدُّ الدرس النقدي - في هذه الحالة - عن المجال العلمي السياقي الذي يؤدي إلى نتائج علمية - أيضاً - لها ثمارها اليافة.

والمفاهيم البلاغية هي - في المقام الأول - نتاج ثقافي معرفي، ومناقشتها بعيداً عن هذا الارتباط الثقافي الذي أفرزها يُعدُّ إقصاءً مقصوداً لها عن أصولها، بل لوجودها، فكل كلام أتيت على فرعه، ولم تخبر عن أصله فهو خداج لا غناء عنده، وواهن لا ثبات فيه⁽¹⁾.

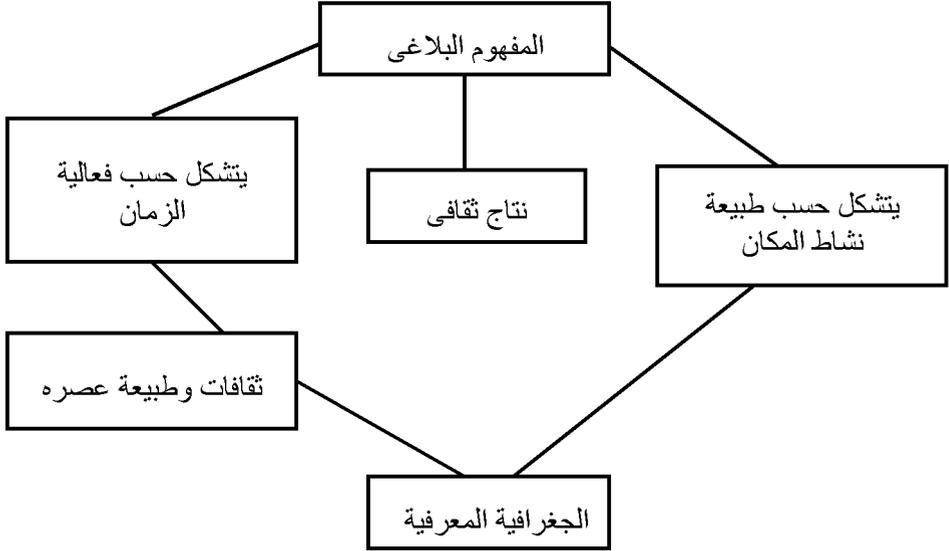
(1) رسالة في المسائل والجوابات - ضمن رسائل الجاحظ، الجزء الرابع، ص 63.

فهذا الكلام حتمَّ ضرورة التأصيل الذى يُظهر ملامح الفروع وأصول المفاهيم البلاغية ودوائرها المعرفية المتسعة المسافة والمساحة. ولا يقف الجاحظ وحده فى هذا القول التأصيلي، ولكنه وضع نظرية بحثية مهمة تتبعها بعده (عبد القاهر الجرجاني)؛ حيث يُلح إلهامًا شديدًا على وصل الفروع بالأصول، وتجاوز العلم بالشىء مجملًا، إلى العلم به فى تفصيل ووضوح - فيقول: «واعلم أنك لا تشفى العلة ولا تنتهى إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حد العلم بالشىء مجملًا، إلى العلم به مفصلاً، وحتى لا يقنعك إلا النظر فى زواياه والتغلغل فى مكانه، وحتى تكون كمن تتبّع الماء حتى عرف منبته، وانتهى فى البحث عن جوهر العود الذى يصنع فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى عروق الشجر الذى هو منه»⁽¹⁾.

- 2 -

ف(عبد القاهر) يرسم أسس الصلة العميقة بين الجذور والفروع، أو بين الإجمال والتفصيل، ووفق هذا المنهج الدقيق الذى شرحه عبد القاهر ومشى فيه فى ركاب أبى عثمان، فإن المفهوم البلاغى فى دراساتها هذه لا يمكن معرفته، والوصول إلى أعماقه إلا من خلال التغلغل العميق فى أصوله؛ ونقصد بذلك مكان التأصيل المعرفى من ثقافات متعددة، تداخلت بفعل العامل الزمنى، وكذلك بفعل العامل المكانى، الذى يؤصل لنحت المفهوم من خلال طبيعة المكان، وتأثيره على ألوان الناس ومشاربهم الثقافية التى تتشكّل حسب النشاط المتعدد للإنسان فى هذا الحيز المعيشى.

(1) عبد القاهر الجرجاني؛ دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، 1984م، ص 260.



الوحدة الثانية - جغرافية المعرفة :

وبناء على رؤية عبد القاهر الجرجاني الذي دعا إلى نظرية الأصول والفروع، ومنابت العود وجوهره، تأتي هذه الوحدة الثانية، التي تدرس طبيعة المعرفة وارتباطها بالنشاط الإنساني في حيزه المكاني.. وإذا كانت الجغرافيا تدرس المكان وحدوده، فإن مفهوم جغرافية المعرفة يتصل بحركة المعرفة، وأنواعها في عصور معينة، تتحدد بحدود مكانية لها أبعادها.

ونستطيع سحب مصطلح «جغرافية المعرفة» على عصر الجاحظ بعلمومه و«ديناميته» المعرفة بالإضافة إلى المكان الخاص به وهو (البصرة) بملاحظتها وصفاتها، وحياتها الجغرافية، والعلمية. ولهذا فإن جغرافية المعرفة - هنا - ستتكون من هذه النقاط:

النقطة الأولى - حركية الموقع وإبداع الاتصال :

- 1 -

عُرفت البصرة على مدار تاريخها بأنها ميناء العرب، وبهذه المعرفة تأخذ تلك المدينة مكانتها وشهرتها الحضارية، وذلك لانتصاها العريق بالثقافات الواردة بتعددتها، إلى جانب طبيعة المعرفة المتكونة بها - «فكانت البصرة ميناء العرب الكبير من أعظم ما تكون عليه القطع البحرية في الدول العظمى، تبادل تجارة بلاد العرب من موانئ المحيط الهندي حتى الصين، ويغشاها أصناف من شعوب الشرف بآسيا وإفريقية»⁽¹⁾.

فالبصرة تمثل جغرافية المعرفة تمثيلاً قوياً من حيث هي :

- 1 - ميناء مهم للعرب، ونافذة اتصالية لهم على الآخر، فهي أهم ميناء في عصر الجاحظ.
- 2 - تُعدُّ البصرة كميناء دليلاً قوياً على صلات العرب بالثقافات الأخرى، فقد اتصلوا بأمم كثيرة، ووصلت ثقافات هذه الأمم عندهم؛ حتى أهل الصين أنفسهم، وهذا أمر يدعو إلى الوقوف على التأصيل المعرفي المتعدد عند تناول المفهوم البلاغي عند الجاحظ وعصره المميز.

(1) محمد كرد علي؛ أمراء البيان، ص 284.

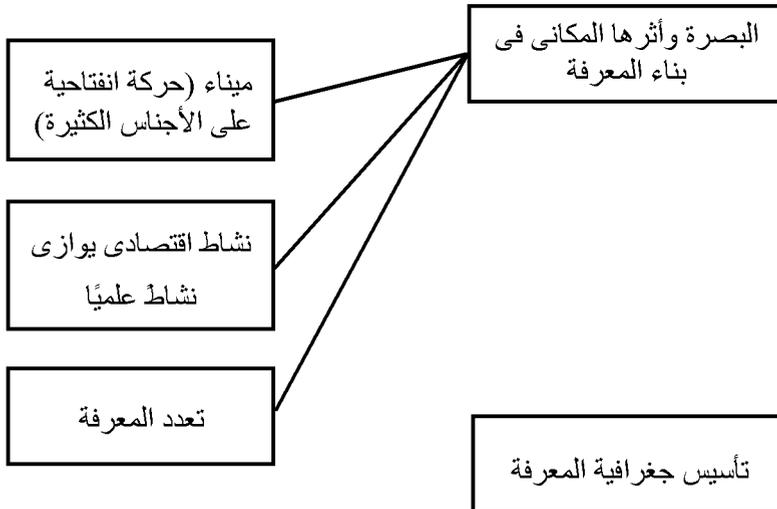
3 - طبيعة الوجود البشرى واختلاف النشاط وفق هذا الوجود، فقد تغشى البصرة أصناف عديدة من الناس.

4 - من أهم الأجناس التي وُجِدَت بالبصرة أهل الهند؛ حيث كُثِرَ عددهم فانتشروا في كل مكان فيها، لقد كان لأهل الهند منزلة معروفة في البصرة - «فالهند من أعظم الأسواق وأهم المراكز في التجارة البحرية، فلا جرم كانت صلتها بهذا الإقليم (البصرة) صلة قوية»⁽¹⁾.

- 2 -

لقد تحققت الهيئة المتعددة والمكونة لجغرافية المعرفة داخل البصرة ذاتها، فالنشاط السكاني لا يمكن فصله بحالٍ من الأحوال عن النشاط الفكري والأدبي بالطبع، فالنشاط اللغوى بكل أبعاده يُعَدُّ موازاة طبيعية للنشاط السكاني نفسه.

ومن المعروف أن الحضارات بأبعادها المختلفة تنتقل من أمة لأخرى عن طريق الموانئ، فهي نوافذ مفتوحة على الآخر بكل مساحاتها، وميناء البصرة يُعتبر نافذة أساسية ومهمة للجلب الاقتصادي بأجناسه المختلفة.



(1) طه الحاجرى؛ الجاحظ، ص 23.

النقطة الثانية - اتساع جغرافية المعرفة :

- 1 -

أدى هذا المزيج العجيب من الأجناس المتعددة داخل إقليم البصرة (ميناء العرب) إلى وجود مزيج عجيب مواز له من المعارف والعلوم، وبذلك امتدت جغرافية المعرفة امتداداً بعيداً وعميقاً في ذات الوقت، وعندما تمتزج الثقافة وتمتد يظهر التصارع، ويبدو السباق المعرفي داخل الامتزاج الجغرافي للأجناس في حيز مكاني واحد، فلا يُسمع الصوت الواحد، وبالتالي لا يكون المفهوم الفردي هو المسيطر، فالاعتقاد - إذن - على رؤية فردية لا يمثل انعكاساً لجغرافية المعرفة، فالتخطيط - عندئذٍ - سينطلق من خلال التعددية، وهذا ما نراه في البصرة حيث «كان التخطيط العلمي يتم في البصرة في أوساط مختلفة، متعارضة لكل اتجاهه ولكل ماضيه، وأساسه الذي يقوم عليه»⁽¹⁾.

فملامح التخطيط العلمي (للبصرة) تبدو في خطوط هي مزيج من التصارع والتعارض والتداخل العرقي للأجناس المختلفة.

ولتمييز هذا الإقليم بجغرافيته المعرفية، فقد سبق غيره من الأقاليم الأخرى من جهات التكوين المعرفي الذي يتمثل في:

1 - سبق أهل البصرة إلى معرفة المنطق والاتصال بالفلسفات الأخرى - «وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهورها في غيرها»⁽²⁾.

وبالطبع فإن هذه الميزة - التي اختصت بها البصرة عن غيرها، من جهة التكوين الفلسفي المتعدد - كان لها تأثيرها المكوّن للجغرافية الثقافية، الأمر الذي ينعكس - بدوره - على صنع

(1) أحمد كمال زكي؛ الحياة الأدبية في البصرة، ص 107.

(2) هذا القول أشار إليه (دي بور) في كتاب «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، ونقلناه عن كتاب «رواية اللغة»، ص 66.

ونحت المعارف والمفاهيم. ولذا جاء الحديث عن البلاغة من زواياها المتعددة المشارب: الفارسية، والهندية، واليونانية، والرومية، وغيرها.

2 - وبجانب السبق الفلسفي وانتشار المنطق في هذا الإقليم تأتي المجالس العلمية المتعددة؛ حيث ذهب كثير من العلماء لعقد حلقات التفسير والمدارس للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف - «فقد كان المحدثون يعنون بتفسير الحديث إلى جانب المعرفة، بالمتون والأسانيد، فكانت اللغة تأخذ مكانتها في مجالسهم»⁽¹⁾.

- 2 -

فوجود حلقات درس وتفسير الحديث النبوي الشريف لم تكن وحدها، وإنما تداخلت الحلقات الخاصة - أيضًا - بتفسير القرآن الكريم ومجال التفسير والمعرفة بالمتون، وكذلك الأسانيد من الملامح التي شكّلت طبيعة جغرافية المعرفة.

ودرس البلاغة لا يبعد عن هذا الميدان، لقد نشأت البلاغة داخل هذا الدرس نفسه، لأنها أهم أسس التفسير القرآني أو تفسير الحديث النبوي الشريف.

3 - ويأتي دور المساجد ووظائفها المعرفية؛ فهي ميدان الدرس، وميدان الخطابة «التي نشأت البلاغة في أحضانها»، ولهذا رأينا - في المحور السابق - إشارات الجاحظ المتعددة إلى معرفية المساجد، ورأينا مصطلحًا خاصًا بمعرفية المسجد، وهذا المصطلح هو (المسجديون)، وصنع هؤلاء المسجديون معرفة متعددة، من خلال حلقات الدرس، ومن عناية الجاحظ الملحة، بهذا الميدان المعرفي، فقد أشار إلى أول من اتخذ مسجد البصرة حلقة للعلم بقوله: «وقد كان جعفر بن الحسن أول من اتخذ مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن في مسجد البصرة»⁽²⁾.

ويعنى هذا القول الذي أورده الجاحظ في «البيان والتبيين» أن ساحات المساجد كانت ميادين للعلوم المتعددة المشارب، كما يعنى - أيضًا - التسابق إلى معرفة أوائل العلماء الذين

(1) عبد الحميد الشلقاني؛ رواية اللغة، ص 67.

(2) البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 267.

تبوءوا مقامهم في مسجد البصرة. ومن هنا نرى مكانة المسجد العلمية باعتباره جامعة شاملة للمعارف والعلوم.

4 - وبجانب مجالس وحلقات العلم المختلفة نرى ظهور مادة أخرى تُساهم مساهمتها البارزة في رسم وتخطيط طبيعة الجغرافية المعرفية؛ وهي مادة (القصص) المميزة بطابعها الفني الخاص، العاكس لطبيعة تكوين مادتها الأدبية، وكان هذا القصص المروى في البصرة يجد جمهوراً كبيراً يتلقاه. ولم يقتصر هذا الفن على عامة المتلقين، بل كان ميداناً كبيراً لاهتمامات العلماء والفقهاء - ولهذا يقول الجاحظ عن أشهر قِصَّاصي البصرة، وجلوس عامة الفقهاء إليهم: «وقد كان عبد الصمد بن الفضل، وأبو العباسي القاسم بن يحيى، وعامة قِصَّاص البصرة، وهم أخطب من الخطباء يجلس إليهم عامة الفقهاء»⁽¹⁾.

وقول الجاحظ هذا ينبّه إلى وجود ظواهر فنية مهمة هي:

أ - انتشار القِصَّاص في البصرة؛ ويعنى ذلك رسوخ هذا الفن التعبيري الذي يتميز بطبيعة مادته العلمية الخصبة الطويلة، فلا تقف عند حد الشاهد البلاغي الجزئي، وإنما هي مادة نسيجها الفني متعدد، يُحاك بدقة متناهية، مما يحتاج إلى صناعة أدبية ماهرة.

ب - الموازنة بين القِصَّاص والخطباء؛ وتنتج هذه الموازنة تفضيلاً للقِصَّاص، فهم أخطب من الخطباء.. واستخدام الجاحظ لأفعل التفضيل في إشارته هذه يُعدُّ حكماً قائماً على ممارسة نقدية جاءت بعد مشاهدة عملية، فمن الصعب أن يلجأ أبو عثمان إلى استخدام صيغة التفضيل إلا إذا كانت تستحق الوجود في هذا السياق فعلاً. وإذا كانت البلاغة نشأت في ميدان الخطابة، ووضعت لها مقاييس فنية انطلاقاً من ذلك؛ فإن هذا الفن (القصصي) - الذي هو أشد ميداناً من الخطابة - يحتاج إلى طبيعة بلاغية أكثر فنية من مجرد الاعتماد على الشاهد الجزئي وحده.

(1) البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 165.

إنَّ القُصَّاص بلاغيون بدرجات تفضيلية أعلى، وبذلك سبق نرى الربط الوثيق بين فن (السردي) وبين (التقنية البلاغية)؛ وهذا أمر اهتمت به الدراسات النقدية الحديثة؛ فكتاب **Modern Rhetoric** يُشير إلى العناية بالسرديّة **Narration** واعتبارها عنصراً أساسياً من عناصر التكوين البلاغي الجديد⁽¹⁾.

- 3 -

لقد ازدحمت البصرة بصنوف العلماء والخطباء والقصاصين؛ فتصارعت المفاهيم، وتداخلت أبعادها، الأمر الذي يجعل الأصول ضرورة معرفية لتفهم الفروع، كما يجعل هناك ميادين للمنافسة، وبرز صيغ التفضيل القائمة على المتابعة، كل ذلك صهر أهل البصرة، حيث كان لهم حساً ناقداً - يقول الجاحظ في ذلك: «وسمعت في خطبة الخشني يقول: كان أهل البصرة لا يشكّون إنه لم يكن بالبصرة رجل أعقل من عبيد الله بن الحسن وعبيد الله بن سالم»⁽²⁾.

ويلمّح هذا القول أن لأهل البصرة دورهم الكبير في الحُكم على علمائها، كما يُشير إلى اهتمامهم البالغ بالعلم ومعارفه المتعددة، وكذلك اختلافهم الدائب إلى العلماء، وإلى العناية بوضعهم في مراتب معينة كلٌّ حسب علمه ومكانته الخاصة، فوضعوا بذلك طبقات العلماء، والتي تأتي مع طبيعة منهج النقد الأدبي.

وهذا الاهتمام يلفت النظر إلى طبيعة الجمهور المتلقى للمادة العلمية، وكيفية تلقيه لها، فنحن أمام جمهور له وعيه العلمي، وله معرفته الجادة بكل عالم من العلماء، وبكل صنف من المعرفة، وكل هذه أمور تؤثر في الطرق الفنية لنحت أي مفهوم.

وبجانِب الحديث عن العلم والعلماء، وإظهار التفاعل بينهم وبين الناس نرى ثمار المعرفة

(1) يُنظر: Brooher and warren, *Modern Rhetoric* New York, 1972, p13.

وينظر العنوان الخاص باسم **Narration**؛ صفحة 187 وما بعدها.

(2) الجاحظ؛ البيان والتبيين، الجزء الأول، ص 275.

والعلم تظهر يانعة في إنتاج الكتب وانتشارها، والتي ظهرت في البصرة؛ مثل: (معجم العين، والكتاب - لسيبويه -، بجانب الكتب الأخرى وكلها تشير إلى سبق علمي)⁽¹⁾.

فانتشار الكتب المتنوعة الاتجاهات في هذا الميدان من الأمور التي تصنع ملامح المصطلحات، وتدعو إلى دراسة المفاهيم في إطار من الاستقرار العلمي الكبير، بل في مساحة ثقافية عميقة الازدهار، فالكتاب وسيلة الاتصال بين الماضي والحاضر، وعامل الانتشار المعرفي بكل وسائله الممكنة.

ولهذه الأهمية المعرفية للكتاب؛ فإن الجاحظ وضع خطوطاً قوية تُظهر إستراتيجية الكتاب في الدرس، والتحصيل، وفي الاطلاع على عقول الآخرين - يقول: «ولم أزل - أبقاك الله - بالموضوع الذي عرفت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها، ومعلوم أن طول دراستها إنما هي تصفُّح عقول العالمين، والعلم بأخلاق النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، وذوى الحكمة من الماضيين والباقيين من جميع الأمم، وكتب أهل الملل»⁽²⁾.

وهذا القول يؤكد طبيعة وجود المعرفة المتسعة في عصر الجاحظ، ويرسم حركية انتشار الكتاب في البصرة، فتمتد الجغرافية المعرفية شاملة عناصر تأكيد المعارف، والاطلاع على عقول وثقافات الآخرين، فيضاف إلى تعدد الجنسيات في هذا المكان تعددٌ في الثقافات المحفوظة في الكتب.

ويدعو الجاحظ في قوله هذا إلى ترسيخ المعرفة بنظرية الدأب والإطالة للتلقى، من الإعادة والاستيعاب، وتلك دعوة لتعميق الرؤية، فلا تنبع من مجرد السطح الأفقى، والذي لا يبعد عمقه عن خدشٍ صغير في سطح المعرفة السميكة، فاختراته - إذن - جاءت وفق هذا المنهج؛ المنهج الاستقرائي، الذي يعتمد إلى الوصول إلى البنية العميقة لأصول المعرفة.

(1) عبد الحميد الشلقاني؛ رواية اللغة، ص 64.

(2) الجاحظ؛ رسالة في المعاد والمعاش - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الرابع، ص 73.

- 4 -

والمفاهيم التي اختارها وبحثها في موسوعته «البيان والتبيين» وفي بعض أعماله الأخرى جاءت حسب هذا المنهج الداعى إليه من قراءة عقول الآخرين قراءة لها أصولها، حيث التأنى الذى من خلاله تحدث النتائج.

فالاختيارات الواردة في باب البلاغة لم تأت عفواً الخاطر، ولم تنظر هكذا إلا من خلال رؤية سابقة نظمتها نَظْمًا دقيقًا محسوبًا فيها كل شيء، إنها رؤية معرفية منتظمة، ونرى من خلال انتظامها منهج صنع الكتاب الذى هو حلقة الصلة بين الأجيال والأجناس - «فلولا الكتاب لاختلت أخبار الماضيين وانقطعت آثار الغائبين، وإنما هو اللسان الشاهد لك، والقلم للغائب عنك، وللماضى قبلك والغابر بعدك، فصار نفعه أعم، والدواوين إليه أفقر»⁽¹⁾.

فالكتاب آلة التوازن الضرورية؛ من حيث المادة المعرفية الواصلة بين الأجيال، الأمر الذى يساهم بقوة في إنتاج الآراء العلمية وصنع المفاهيم والمصطلحات المنشأة على أصول قوية راسخة رسوخًا ثابتًا، فالكتاب هو القطب الذى عليه مدار علم ما في العالم وآداب الملوك»⁽²⁾.

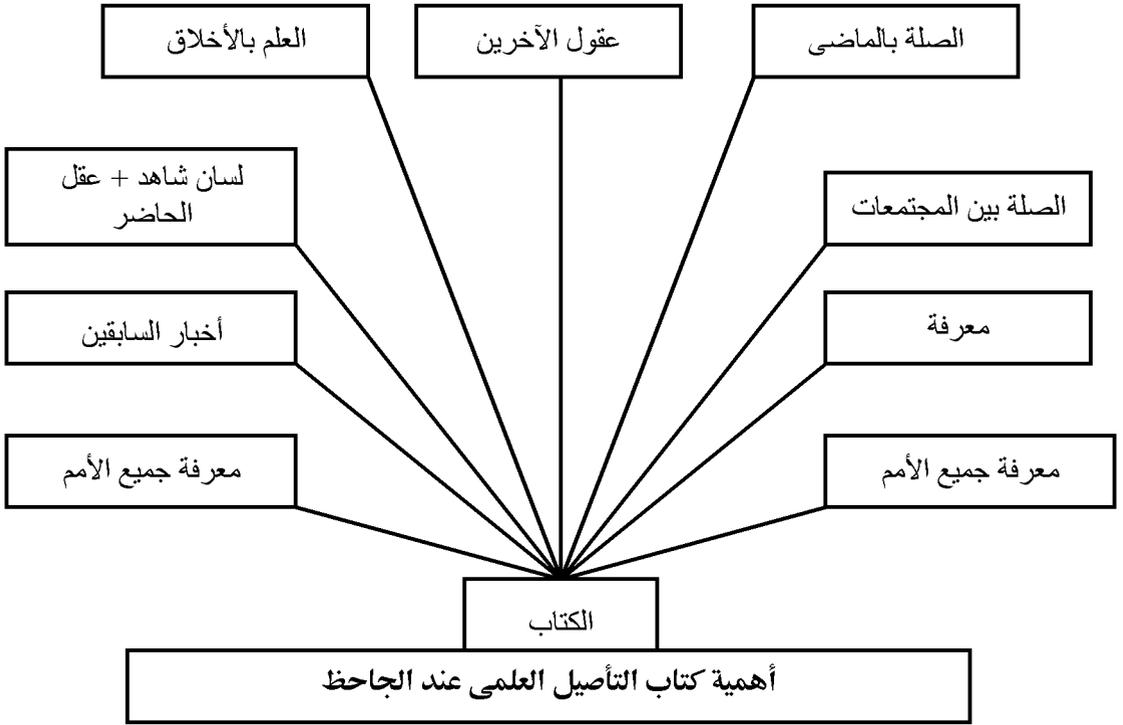
ويعدُّ الكتاب - كما رأى الجاحظ - أهم أداة للمعرفة يتعامل معها المتلقى؛ فهى أبلغ من التلقى، حيث الانفراد والتحدث إليها بكل أبعاد العقل، ومناقشته في هدوء دونما عصبية وفتن، ولذا فقد ألحَّ الجاحظ على ضرورة تأكيد الصلة الذاتية للكتاب قائلاً: «ولن يُصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره، واعلم أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاميذهم، إذ كان مع التلقى يقوى التصنع، ويكثرُ التظالم، وتفرط النصره، وتنبعث الحمية»⁽³⁾.

(1) الجاحظ؛ رسالة في المعلمين - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثالث، ص 27.

(2) الجاحظ؛ في رسالة المودة والخلطة - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الجزء الرابع، ص 204.

(3) الجاحظ؛ رسالة في الجوابات واستحقاق الإمامة، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الجزء الرابع، ص 296.

فالكتاب عالم ليس لديه عصبية معينة تضيع معها فائدة التحصيل، وليس عنده من الحمية ما يمنع وصول الحقيقة وأخذها صافية بعيدة عن الأغراض والميول؛ فالمادة المعروضة فيه تُنم عن منهج مستوى استواء لا غرض فيه.. وعرض مادة البلاغة عنده جاء من خلال أتباع مثل هذه الرؤية التي تحققها بعد ممارسة قرائية مستمرة.



الوحدة الثالثة - دينامية المعرفة وشخصية الجاحظ :

هذه الوحدة نتاج ما عرض في المحور الأول حول شخصية الجاحظ ذاتها؛ فهي شخصية موسوعية تُنم وتتم بالدينامية المعرفية، ولهذا كانت قراءتها قراءة نقدية أخرى تُعدُّ من أهم الأمور التي تؤدي إلى معرفة المفهوم البلاغة عنده، بل أن محاولة الوصول لهذا المفهوم بعيداً عن معرفة طبيعة شخصية الجاحظ، وثقافتها، يُعدُّ أمراً خداجاً ورؤية بعيدة عن أصولها الواجبة، وعن متابعتها الحققة، ولهذا كانت ضرورة تناول ما نسميه بـ«دينامية الجاحظ المعرفية»، وسوف نستعين بإشارة ثابت بن قرة - مرة أخرى - والخاصة بوصف جوانب هذه الدينامية المتميزة عند الجاحظ (فهو - كما قال ثابت - خطيب المسلمين + شيخ المتكلمين + مررة المتقدمين + إن تكلم حكي سبحانه البلاغة + وإن نظر ضارح النظام في الجدل + شيخ الأدب + لسان العرب + كتبه رياض زاهرة + رسائله أفنان مثمرة).

وشرح هذه الصفات يعتبر أمراً علمياً في هذا الموقع الذي يُعنى بدراسة المحصلات المستنتجة من عرض المحور الأول؛ ويأتي هذا الشرح في تلك النقاط:

النقطة الأولى - التفوق الخطابي :

- 1 -

لقد أشار (ثابت بن قرة) إلى تأصيل صفة الخطابة لدى الجاحظ حتى حاز سبقها بتفرد نهائي، فلقَّب بـ(خطيب المسلمين)، وقد اعتمد هذا التعبير الوصفي على تركيب إضافي يفيد التفرد المشار إليها...

حيث أُضيفت كلمة (خطيب)، وهي مشبهة، إلى (المسلمين) الجمع الدال على الكلية الفردية لهذا الفن القولي على مستوى المسلمين جميعه؛ في عصره، وفي غير عصره.

وإذا كانت البلاغة - في عصر الجاحظ - هي الخطابة ذاتها، أو فن القول الشهوي القائم على دينامية التعبير بين القائل (الخطيب)، والجمهور (المتلقى)؛ جمهور السامعين، المجيدين

لحُسن الاستماع، والفهم، والتفاعل لما يُلقى من قول، ومعرفة مكان القوة والضعف في الخطيب (البليغ)؛ فإن تفوق الجاحظ ووصوله إلى درجة التفرد في مجال الخطابة يجعلنا نقف بالدراسة المتأنية لطبيعة اختياراته، والتي نتجت من ممارسة التفوق بنفسه.

- 2 -

وحصول الجاحظ على لقب (خطيب المسلمين) يُبرهن على درجة التداخل المعرفي الذي أتقنه بخبراته الموسوعة، الأمر الذي يدخل - بالضرورة - في منهجه الاختياري، كما يدخل - كذلك - في منهجية العرض والمناقشة، فالترتيب لعرض المادة العلمية سيأتي من الممارسة والخبرة الميدانية، لا من جهة الرؤية النظرية وحسب. ولكننا سنرى ثنائية تتكون من «الرؤية والتطبيق» هذا من جهة.. ومن جهة أخرى سنرى مادة خطابية تعرض - بالضرورة - في أعماله، وهذا أمر عنى به الجاحظ عناية دقيقة، حيث عرض خطباً لأشهر الخطباء في عصور متعددة، وفي أثناء عرضه يركّز على درجات الخطباء وثقافتهم، وهو في ذلك يحقق المنهج السائد في عصره؛ وهو منهج الطبقات، والتي مهرها - بقوة - ابن سلام الجمحي في كتابه عن طبقات فحول الشعراء.

وليس هذا وحده هو صنيع الجاحظ مع الخطباء ودرجاتهم، بل إنه يُخصي الخطباء الشعراء والخطباء العلماء، وكل هذه الاختيارات تُرى مبثوثة في أعمال الجاحظ، وخاصة «البيان والتبيين».

وهذا العرض الذي يهتم به أبو عثمان يحمل في طياته الداخلية أهمية معرفية مقصودة تُضاف إلى عناية الجاحظ بطرح نظرية خاصة يرسمها بدقة في كل ما يُعرض له، كما يحمل - أيضاً - رغبة بعيدة ومهدفة من التثقيف الخطابي نفسه.

وبهذا الصنيع المقصود يضع الجاحظ بين يدي المتلقى مواد بلاغية (خطابية) متعددة، تُعينه على طبيعة فهم أمور البلاغة.

إنَّ الخطب ودرجاتها مع أصحابها جزء مهم من دائرة معرفية يرسم مساحتها الجاحظ

بدقة خفية، لا يُحيط بها إنسان إلا بالبحث الدائب في أعماله كلها، ولذا وُصِفَ منهج الجاحظ لدى بعض الدارسين بالتفكك وعدم التماسك.

النقطة الثانية: الجاحظ ودرجاته البلاغية:

- 1 -

والنقطة الثانية هذه تتصل بصفات الجاحظ الموسوعية؛ حيث تختص بالدرجة البلاغية العليا التي حازها الجاحظ، فوُصِفَ بمحاكاة سبحان وائل في بلاغته، وذلك الوصف ارتبط بالجانب التعبيري؛ ولاسيما القولي منه.

وتفوق الجاحظ في بلاغة الخطاب القولي (الشفوي) أمر ينضم - بالضرورة - إلى الصفة السابقة، والتي أُسبغت عليه، وبذلك تجتمع عنده صفتا التفوق الخطابي (البلاغي) والتفرد في ميدانه... ولهذا الاقتران (الخطابي والبلاغي) أثره الدافع لاختيارات الرؤى البلاغية المتعددة عند أجناس متداخلة.

فالإحاطة بكل فنون القول الشفوي تبدو من خلال هذا الوصف الثنائي (الخطابة + البلاغة = خطيب المسلمين + محاكاة سبحان وائل).

ولفنون القول الشعري أصوله ومقاييسه التي تضمن إصابة المعنى، لأن الإصابة - هنا - تُعدُّ موقفاً ثقافياً له دوافعه المقصدية، ولذلك كان التدريب الجاد على اللُّسن، وبراعة القول، والارتجال الذي يأتي من خبرة تعبيرية، ليست وليدة الموقف، أو المصادفة، إنها موقف يدفعه الانتفاء الاعترالي، والذي كان الجاحظ أحد أعلامه المؤسسين، (فالجاحظية) المشار إليه، فرقة لها أصولها المعرفية، ولها أدواتها التعبيرية القائمة على الإجادة الخطابية، وبراعة القول البليغ.

وتأتى المناظرات التي ملأت كل ساحات الدرس في عصر الجاحظ، وهي - بحق - ميدان البيان (البلاغة) بكل عناصرها، وهي بالتالي ميدان الخطابة، وحُسن القول، وحُجَّة الإقناع - «وقد كان المعتزلة فرسان الحلبة في المناظرات والعقائد»⁽¹⁾.

(1) يُنظر: محمد أبو زهرة؛ تاريخ الجدل، ص 214.

ومن أهم صفات تلك المناظرات: أنها كانت ارتجالية في أغلبها؛ حيث لا يُعدُّ لها إعدادًا مسبقًا إلا نادرًا - «فقد كثرت مجالس مناظراتهم، فقد تناظروا بين أيدي الأمراء، وفي المساجد، وفي كل مكان يصلح للجدل والمناظرة، ولكن المأثور من المناظرات قليل بالنسبة لما كان، السبب في ذلك أن أكثر تلك المناظرات كان ارتجاليًا»⁽¹⁾.

والارتجال الخطابي يحتاج إلى ثنائية التمكن في الخطابة والقول (البلاغة)؛ حيث الاستعداد للمناظرة، والتجهيز في أي وقت يستدعي ذلك، فليس هناك إعداد مسبق لها، فيمثل الخطابة آلة القول من: الصوت، والقوة، والوضوح، والهيئة، وكل طقوس التعبير الشكلية من: رباطة الجأش، وقوة الأداء، وعدم التوقف؛ أي المواصلة، والاستمرارية الدالة بكل أداء على امتلاك المحصول البلاغي الخصب.

- 2 -

أما البلاغة: فهي المادة المسموعة نفسها بكل أبعادها التعبيرية، والتي صُبت في كل خطاب، يوصلها القائل بكل أبعادها وتكوينها (الأسلوبى الخاص) إلى المتلقى، حيث الوظيفة الإقناعية، والتي فُرضت في ميدان المناظرات، والتي تتوقف بحال من الأحوال، فعملية الإقناع تفرض تأصيلًا لفن القول الشفاهى.

فهذه الميزة البلاغية التي عُرف بها الجاحظ تأثير قوى من حيث الدوافع الخاصة لاختيارات المفاهيم البلاغية ذاتها، فالمفاهيم البلاغية - إذن - انتقاء لا بد له من التناسب التام مع ثقافته هذه، فيأتى الاختيار من جهة المادة المعبرة ومن جهة الترتيب نفسه الذى يصنع نظامًا بلاغيًا، يخضع لمنهج مقصود عند الجاحظ نفسه، لقد نظم اختياراته وفق منهج هندسى له أصوله الثقافية.

(1) المرجع السابق؛ ص 214.

النقطة الثالثة - ثقافة المناظرة وعلم الكلام :

- 1 -

تنضم هذه النقطة - بأهميتها - للنقطتين السابقتين «الخطابة والبلاغة»، فإذا ناظر الجاحظ ضارع (النظام) أستاذه في الجدل والكلام - «ولقد تربى الجاحظ على يد أستاذه (النظام) فأخرجه لسناً جديلاً، يعرف كيف يحاور، ويداور، وكيف يستعين بالمنطق الصحيح، وكيف يستعين بالمنطق القيم ليدعم رأيه، وينصر فكرته»⁽¹⁾.

واختيار شخصية (النظام) عند الحديث عن جدل الجاحظ ومقدرته الكلامية أمر له هدف مقصود، فـ(النظام) - كما أشرنا - أستاذه البارع في هذا الميدان، الذي حازه بجهد الكلامي المعروف، حيث ملأ البصرة بعلمه الجدلي.

وللجدل أصوله وثقافته، ووظائفه «فالغرض منه إلزام الخصم، والتغلب عليه في مقام الاستدلال»⁽²⁾. ووصول الجاحظ إلى البراعة التامة في هذا الميدان ومضارعتة لـ(النظام) أستاذه، وربما فاقه وظهر عليه أمرٌ يوسع ميدان الحديث البلاغي، ويجعل اختياراته في كل ميدان لا تؤخذ بالشكل الأولى لها، حيث النظرة السطحية القائمة على الشكل الانطباعي بادي الأمر.

- 2 -

والمناظرات الجدلية تُظهر الخلافات الفكرية بين العلماء ورجال الفكر، ومن هنا كانت العناية الفائقة بهذه المناظرات الجدلية من قِبَل رجال العلم⁽³⁾. وقد أُطلق على الجدل من قديم (أدب المناظرات)⁽⁴⁾؛ حيث الصراعات الدائرة بين أصحاب المذاهب الفكرية. إنَّ المناظرات

(1) شوقي ضيف؛ الفن ومذاهبه في النشر العربي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، 1971م، ص 173.

(2) محمد أبو زهرة؛ تاريخ الجدل، ص 5.

(3) المرجع السابق؛ ص 6.

(4) عبد الرحمن بن خلدون؛ المقدمة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ص 462.

التي أجادها أبو عثمان الجاحظ على يد أستاذه (النظام)، هي أداة من الأدوات الاستظهارية، تقوم معتمدة على قوة البيانات الدافعة، فهي - إذن - آلة مهمة من آلات القول والدفاع عن العقيدة، وهذا الدفاع العقائدي مهمة أساسية من مهام المعتزلة، ولهذا الأمر الدفاعي العقائدي فإن الخلفاء شجّعوا هذا اللون القولي القائم على الحُجَّة الإقناعية - «فقد عمل خلفاء بني العباس على تشجيع الحركة العملية، وتقريب العلماء، وإدنائهم لهم، وذلك التشجيع قد تبعه تشجيع المناظرات، إذ ليست إلا صورة لقوة المحركات العملية، واختلاف النفوس في المنازع، واختلاف العقول في المسالك، فعُقدت لها المجالس في قصور الخلفاء والأمراء وفي المساجد والنوادي»⁽¹⁾ - ومن خلال هذا القول نرى هذه الأمور :

1 - ارتباط تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء بتشجيع المناظرات، وهذا الارتباط يدل على طبيعة المناظرات وعلاقتها الخاصة بقوة القول، وبالتالي بطبيعة التكوين البلاغي.

2 - قوة المناظرات تُعدُّ صورة واقعية انعكاسية لقوة المحركات العلمية، فعندما يوصف الجاحظ بقوته في المناظرة، ومضاهاته التامة لأهم أعلامها (النظام)، فإنها يوصف باحتوائه الذكي التام للمحركات العلمية.

3 - احتواء الجاحظ - بناءً على ذلك - كل المشارب والاختلافات المتعددة، والتي حدثت في عصره، فالمناظرات إظهار لاختلاف النفوس في ميولها وأهوائها، وهذا أمر يتطلب - بالتالي - استيعابًا فسيحًا لكل الميول والأهواء... ومن هنا كانت خصوبة موضوعات المناظرات التي امتدت امتدادًا شاسعًا وكانت حاجتها الشديدة إلى طبيعة قولية تتناسب مع هذه الصفات. ومن هنا - أيضًا - كانت أصول التكوين البلاغي، والتي تؤسس على أصول ومقاييس مستمدة من المناظرات وصفاتها، فالبلاغة أداة المناظرات وآلة إقناعها، ولهذا كان من الخلفاء من يذكّي أوراها، ومنهم من يعمل - جاهدًا - على المشاركة في مضمار صراعها.

وقد كان المأمون من أهم المشاركين في مضمارها؛ حيث ساهم مساهمة فعّالة في حركتها وانتعاشها.

(1) محمد أبو زهرة؛ نفسه، ص 238.

النقطة الرابعة - الجاحظ وثنائية الجدل والكلام :

- 1 -

تنضم هذه النقطة بطبيعتها إلى النقاط السابقة، من حيث مكونات الدينامية المعرفية لشخصية الجاحظ ذاتها، باعتبارها موسوعة (أبستمولوجية)؛ لها تأثيرها في عملية الاختبارات والتنظيم للمفهوم البلاغي. لقد لقبه ثابت بن قرة (مرة المتكلمين)، ويقصد هنا تزعمه لعلماء الكلام بكل اتجاهاتهم، وثقافتهم. ولقد أتقن الجاحظ هذا العلم، ورسخ فيه حتى عدّ مدرته. وموضوع علم الكلام الذي تزعمه الجاحظ بجانب الأمور المعرفية هو ميدان تأييد العقيدة والدفاع عن الرأي⁽¹⁾.

وبالطبع فإن الجاحظ حريص حرصاً بعيداً على إظهار الرأي، وعرضه لك بأبعاده الإقناعية؛ وهذا الأمر يُعدُّ ميداناً ممتداً - بالطبع - مع ميدان الجدل الذي حاز زعامته كذلك وضارع، بل وسابق فيه شيخه (النظام). وإذا علمنا موضوع علم الكلام - كما يُشير إليه ابن خلدون - وهو الخصام والتناظر، والاستدلال بالعقل، زيادة إلى النقل⁽²⁾. فوصف الجاحظ - إذن - بزعامه المتكلمين، واقتداره الخاص في ميدانه لدرجة التفوق فيه ليس إلا من قبيل الإجابة التناظرية، التي تحتاج إلى (دينامية) معرفية موسوعية، فقد عرّف الجاحظ كيف يكوّنها تكويناً اعتمد فيه على أصول هندسية دقيقة، تظهر أثارها من خلال طبيعة تناوله ودرسه للأمر من زواياها الاستقصائية التامة.

- 2 -

لقد تبوء الجاحظ مكانه الطبيعي للزعامة الكلامية من خلال طبيعة علم الكلام وموضوعاته - «أى من خلال درس العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من

(1) كمال اليازجي؛ معالم الفكر العربي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة، 1974م، ص 75.

(2) ابن خلدون؛ المقدمة، ص 462.

حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية»⁽¹⁾.

والطبيعة الكلامية لها آلياتها التى تحققها مثل الخطابة القولية، ومكانتها ثم تأثيرها الإبلاغى القائم على أصول مفروضة يلح عليها إلحاحاً شديداً، وبجانب هذا فإن ميادين التعبير البلاغى تؤصل تأصيلاً له إمكانات مفروضة كذلك. ومن هنا كانت المفاهيم البلاغية المتتقاة، والمتنظمة على أصول علمية معينة.

النقطة الخامسة - الجاحظ والتفوق الميدانى :

- 1 -

وإذا كانت صفتا «الخطابة والبلاغة» تعبران عن التمكن الشفوى وطبيعته؛ حيث ميادين البلاغة القولية، والتى هى أهم ما يعنى به الجاحظ، وذلك من جهة الإقناع الخطابى، فإن الوصف الآخر للجاحظ؛ الذى يتواتر مع الأوصاف الأخرى السابقة، تكوّن الوحدات المتناسكة المكونة للأصول المعرفية عنده. لقد وصفه ثابت بن قره بأنه شيخ الأدب.. واعتمد فى هذا الوصف على فنية الإضافة؛ وذلك بنسب كلمة شيخ إلى الأدب (شيخ الأدب)، فيحدث الوصف التفردى المقصود، وذلك بوضع الجاحظ على قمة الإجادة التعبيرية بأنواعها، والتى تمتد من الميادين الشفهية والكتابية - «الجاحظ يطالعك من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع، ويعلمك فى سهولة ويسر لا يشق عليك، يُدخل فى نفسك مدخل صدق، ويستهويك وأنت لا تدري كيف أخذت»⁽²⁾.

إننا نرى فى هذا القول حرص الجاحظ على التفنن الأدبى القائم على خصائص إبداعية قصدها بهدف السيطرة السحرية على المتلقى، فيؤخذ به أخذاً شديداً. ومن هنا يأتى الالتقاء والتساوى مع الهدف البلاغى، وكذلك الخطابى؛ فالخطابة لها سيطرتها على نفس المتلقى من خلال الأبعاد والأواصل الفنية والبلاغة لها سيطرتها - كذلك - باستخدام آلياتها المفروضة،

(1) المرجع السابق؛ ص 466.

(2) محمد كرد على؛ أمراء البيان، الطبعة الثالثة، 1969 م.

والأدب له سيطرته الأخاذ. وقد فطن الجاحظ إلى هذه السيطرة ووظائفها الإقناعية، فوظفت فنونه الأدبية مع الفنون الخطابية والبلاغية للأمور العقائدية ومجالها المتعدد. ومن هنا ترتبط الوظيفة الأدبية مع الوظيفة الجدلية التناظرية؛ فتتسع المسافات، وتتعدد الآليات بأنواعها الكثيرة.

- 2 -

فالبراعة الأدبية عند الجاحظ هي - إذن - براعة ووظائفية، وبجانب ذلك فهي براعة معرفية، ثقلتها سليقة وفطنة، وعمق رؤية؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فقد فطن الجاحظ، وهو الدارس لفنية الحديث النبوي الشريف، إلى التأثير البياني في النفوس، وفي السيطرة عليها سيطرة السحر على الإنسان، وقد أشار الحديث الشريف إلى هذا التأثير بقوله: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمًا**». ولهذا عنى الجاحظ نفسه بأن يكون أدبه ينبعث البهاء فيه - «من كون مادة الجمال فيه سيالة بَرَّاقَة نصَّاعة تنشر السرور في الروح»⁽¹⁾.

والجاحظ لا يفصل مطلقاً بين النظر والتطبيق، فنظرية المعانى المطروحة في الطريق، حيث يلم بها العربى والعجمى، والبدوى والقروى، ولكن الأمر يتصل - فنيًا - بطرق التعبير الأسلوبية.. ولهذا كان وصف مادة أدب الجاحظ بأنها سيالة، وهذا ما ركز عليه أبو عثمان عند صناعة الكتابة، ولذلك فهذا الوصف الإيجازى المكثف قد ارتكز على ثلاثة أمور هي:

1 - حركة المادة وجريانها بشكل سلس؛ وهذا ما يقصده الجاحظ بكثرة الماء، وإقامة الوزن الذى يدفع بدينامية رفاقه، سيالة الحركة.

2 - رونق المادة الأدبية عند الجاحظ بَرَّاقَة؛ تقوم على تحقيق الهدف الأسلوبى والذى يجيده الجاحظ، من حيث الاعتماد على شكلية الأسلوب المتصل بطبيعة المضمون، الذى يصب فى هذا الشكل.. أو بمعنى أكثر فنية: إن رؤية المضمون، ورغبة تشكيلها تصنع هذه الأبعاد الأسلوبية.

(1) المرجع السابق؛ ص 265.

3- إنَّ طبيعة السرور الذى ينبعث من مواد الأدب عند الجاحظ لها وظائفها المقصودة؛ من حيث التأثير على المتلقى، وتلك رغبة تعليمية لها قوتها فى الإقناع، والدفاع من جانب النشر أيضًا بجانب القول الشعري، عند العقيدة الخاصة لأهل الاعتزل؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الجاحظ - بذكائه الشديد - يريد العمل بقول النبى ﷺ: «إنَّ من البيان لسحراً»، فأراد صناعة بيان له سحره التأثيرى على المتلقى. ومن هنا استطاع الجاحظ الجمع بين فنون التعبير الممتد من الشفاهية إلى الأدب المكتوب.

النقطة السادسة - «الجاحظ» لسان العرب المعبر :

- 1 -

والمقصود باللسان (اللغة)؛ وهذا أمر أشار إليه ابن خلدون، من جهة علوم اللسان وحديثه عنها⁽¹⁾. وصف الجاحظ بكونه لسان العرب المعبر أمر يدل على طبيعة حركة التفرد البلاغى كأداة تناظرية إقناعية، ويشير هذا الوصف إلى العناصر البلاغية القولية، فاللغة التى هى لسان المقصود - هنا - يقصد منها تلك اللغة الفنية، فهو لسان العرب المحتوى لطبيعة اللغة المعبرّة فى مستواها الفنى، وكذلك المستوى التوصيلى، كما يشير هذا الوصف بطبيعة خبرة الجاحظ باللهاجات وما يعتبرها، كما ترى من خلال حديثه فى الباب الأول من «البيان والتبيين»؛ حيث الدراسة الفنية لحركة القول، وخروجه من مخارجه.

- 2 -

ولا يقف هذا الوصف (بشياخة العرب) للجاحظ عند هذا الميدان الخاص، ولكن هذا الوصف ينقلنا إلى الإشارة المقصودة إلى ثقافة الجاحظ اللغوية - التى أشرنا إليها فى هذا المحور -، لقد أخذ الجاحظ اللغة من عدّة موارد مهمة، فحذق اللسان العربى المبين فى حصره وباديته، فكان لسان العرب الفصيح.

(1) يُنظر: ابن خلدون... وحديثه عن علوم فى «المقدمة».

ويعبر هذا الوصف - كذلك - على جمع الجاحظ لكل أبعاد القيم القولية ذاتها، حيث الحرص على الإنابة والفصاحة والوضوح؛ وكلها أدوات القول البليغ، وكلها - أيضًا - آليات الحجّة، والجدل، ومقدرة التأليف.

النقطة السابعة - كتب الجاحظ ورسائله وفنية التأليف :

- 1 -

لقد وصف (ثابت بن قرة) كتب الجاحظ ورسائله بأنها: «رياض زاهرة وأفنان مثمرة»، فوصف الكتب الجاحظية بأنها رياض زاهرة، أمرٌ دال على عمومية التأليف عند الجاحظ، فكتبه موسوعات كبيرة اتسمت بالجمع المتعدد لمعارفٍ شتى، ولكنها انتظمت في سلك فنى واحد، وذلك حسب الرؤية التعددية، ورغم ذلك فهي تسير في خط واحد قوى، ولكنه خط لا يبدو لقارئ الجاحظ من أول وهلة، وإنما هو أمر يحتاج إلى عمق القراءة الشاملة لأعماله، فالجاحظ ذكى ماهر الذكاء، لا يعطى القارئ أسراره دفعة واحدة، وإنما على قارئه الصبر والجلد مع القرارات المتعددة له، ومع هذه القراءات سيجد متعة التعرف على منهجه، كما سيجد متعة الارتباط بدوائر معرفية متصلة متشعبة، ولكنها مع ذلك تكون وحدة متماسكة. ولأن الجاحظ كان واعياً يجعل كتبه رياضاً زاهرة، فقد وضع منهجاً فنياً للتأليف - تأييد الكتب والرسائل -؛ وهذا المنهج يُشير فيه إلى ضرورة التنوع والتغيير - يقول في ذلك: «وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف، التي تستكد النفوس، وتستفرغ المجهود»⁽¹⁾.

فمنهجية الجاحظ في التأليف تعتمد على التنوع، وجعل الكتاب روضة باسقة لا يمل رؤاها مطلقاً، وذلك لأن الجاحظ يعلم تماماً «أن للصبر غاية وللإحتمال نهاية»⁽²⁾.

(1) الجاحظ؛ رسالة في النساء - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثالث، ص 153.

(2) نفسه؛ ص 153.

- 2 -

ولا يقف الجاحظ عند ذلك الحد، بل أشار إلى أمر مهم للقارئ؛ وهو أن يكون هناك أمور تنشيطية له - «فلا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشّط القارئ، وينفى النعاس عند المستمع»⁽¹⁾.

كل هذه الأمور التنشيطية لا بد لها من جهد معين من المؤلف نفسه، ولهذا تنوع الكتاب بهادته، وجمع ما يمكن أن يُعرف عند الجاحظ بالمحاسن والأضداد - «فالكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حُشِيَ ظرفاً، وإناءٌ شُجِنَ مزاحاً وجدّاً، وإن شئت كان أبين من سبحان وائل، وإن شئت كان أعمى من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت أهتكت طرائفه، وإن شئت أشجنتك مواعظه»⁽²⁾.

فالجاحظ يركز تركيزاً على طبيعة المادة التي تُصَبُّ في هذا الوعاء، فالمحتوى لا بد وأن يكون مناسباً، فمادة الكتاب - مهما كان - مادة علمية منضبطة، كما لا بد له من عرض خاص، له أبعاده. ومن ثمَّ فإن الجاحظ اتبع ما أشار إليه - هنا - وأكد عليه في أكثر من موضع.

وكتاب «البيان والتبيين» وعاء كبير، حيث خطط لهذا الوعاء تخطيطاً واعياً منضبطاً، يتفق مع طبيعة الكتاب، وكذلك وضع حجمه الكبير؛ فلقد جعل هذا الكتاب روضة باسقة مليئة بالأشجار، ومن ثمَّ بالأفنان الكثيفة، فكيف تكون المادة العلمية في هذه الموسوعة الكبيرة في مرأى الجاحظ، إنها ستكون مادة شهية، شائقة، متدفقة، متساوقة مع بعضها البعض، ولهذا يتحدث عن الكتاب وكيف يستنطقه القارئ؛ فيقول: «من لك بواعظ مله، وبزاجر مقرر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وبيارد حار، ومن لك بطبيب أعرابي، ومن لك برومى هندي وبفارسى يوناني، وبقديم مولد»⁽³⁾.

(1) نفسه؛ ص 153.

(2) الجاحظ؛ الحيوان، الجزء الأول، ص 38.

(3) نفسه؛ ص 38.

فكل هذه الأمور يجمعها الكتاب، متحدثاً لك من خلال الصراع النشط عن متضادات انتظامية، سلكها مع بعضها البعض في منهج مقصود من المؤلف.

إنَّ الجاحظ يدعو من خلال حديثه عن الكتاب إلى ضرورة اتباع منهج معين لكل كتاب، ويعمل هذا النظام على نَظْمِ المادة العلمية التي به نَظْمًا لا خلل فيه. ومن هنا كان الرد على من يدعون أنَّ منهج الجاحظ في «البيان والتبيين»: لم يخضع لمنهجية واضحة وبناء مُحْكَم⁽¹⁾. فهذا القول مردودٌ عليه من حيث منهجية الجاحظ المعروفة؛ والتي أشار إليها هو ذاته من خلال ضرورة العناية بتنقيح الكتاب مرة تلو الأخرى، فلا يقتصر على مجرد التأليف الأولى⁽²⁾.

ولأنَّ صفتي «الانتظام والترابط» في أعمال الجاحظ التأليفية تُعدُّ هدفًا مقصودًا عنده، لهذا جاءت كتبه - كما وصفها الآخرون - إبداع خاص، فهذه الكتب بموادها تجلب صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمه السامع؛ خرج من جيد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة⁽³⁾.

وَوَصَفِ المسعودي لكتب الجاحظ، ومؤلفاته تركز ارتكازًا واضحًا على منهجية خاصة ومقصودة؛ فهذه الكتب الجاحظية تعنى بالعقل والتفاعل معه أيًا تفاعل، فالأذهان تجلي في قراءتها، وتلك إشارة فنية لها مغزاها الفكري، حيث عناية أبي عثمان بالدينامية العقلية، وإزالة صدأ العقل لا يكون بدون جهد عقلي مُحْكَم في بناء العمل. ومن هنا كان وضعه لشروط تأليفية تضمن قوة التأليف، وامتانة المادة - يقول: «واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً ولأهل النظر مألُفًا؛ حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل

(1) حمادى صمود؛ التفكير البلاغي عند العرب، ص 143.

(2) راجع: الجاحظ؛ الحيوان، الجزء الأول، ص 39. [يقول الجاحظ في المحاسن والأضداد عن الكتاب ومحاسنه؛ ص 5].

(3) المسعودي؛ مروج الذهب، الجزء الرابع، ص 109.

الذى يبلغ لنفسه، حتى لو لم يقرأ القارئ من كتابه إلا مقالة خصمه خيّل له أنه الذى اجتباها لنفسه»⁽¹⁾.

فهذه الدعوة التى يريدتها الجاحظ تهدف إلى الاهتمام بالجانب الحيادى فى التأليف، وترك أتباع الهوى، ولهذا فقد أشار المسعودى إلى أنّ الكتب الجاحظية تجلو العقل، باعتبارها على الحياد، وإعمال النشاط العقلى بكل أبعاده. لقد دعا الجاحظ إلى الاستقصاء بين الخصم وبين نفسه.

- 3 -

فهذا المنهج الخاص الذى يؤكده الجاحظ فى صناعة الكتاب؛ من حيث طبيعة المادة المحتوية له، وبالطبع فإنه ينعكس أيضًا على المنهج المتبع فى اختيارات المفاهيم البلاغية. وإذا كانت كتب الجاحظ تُخاطب العقل فهى رياض زاهرة - أيضًا - بجانب ذلك. ومن هنا جمعت بين المنهج العلمى والذوق الأدبى.

وما ينطبق على منهج الجاحظ فى تأليف الكتب ينطبق - بالضرورة - على منهجه فى تأليف الرسائل؛ وهى - كما يقول قره - أفنان زاهرة. وبذلك تكتمل الدائرة المعرفية الجاحظية، فتكون الدينامية العلمية التى تعمل بأبعادها على تحريك موادها العلمية.

(1) الجاحظ؛ العثمانية، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1951م، ص 280.